نداء النبى ﷺ بأوصافه فى الذكر الحكيم

" مقاماته وأسراره البلاغية "

الدكتور

سلامة دردير محمد على

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله - تبارك وتعالى - على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله

﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ البقرة/٣٢

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ الأنعام / ٥٩ .

ثم أما بعد

فإن الكتابة فى شأن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ سهلة وصعبة ، أما سهولتها فتأتى من سعة مواردها وكثرة مصادرها ، وأما صعوبتها فتنشأ من سمو قدره ، وعلو مقامه ، فيجد الكاتب مادة الكتابة غزيرة فى سيرته العطرة ، لكنه مهما كتب وأبدع يرى ما كتب بعيداً عن تحديد صورته الحقة ، فيخجل من وضعه ويخشى أن يكون مسيئاً على غير ما أراد ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن ذلك ليس راجعاً إلى قصور فى استعداده ، وإنما يرجع إلى عظم شأنه ورفعة منزلته ﷺ ، وكذلك كان شأن من سبقوه على كثرهم ، فيلمس عذره وعذرهم .(١)

ولقد أبان الله - تعالى - فى كتابه الكريم خصائص نبيه ﷺ فى آيات كثيرة ، ومن هذه الخصائص : أن كل نداء نودى به رسول الله ﷺ قد جاء بلغة تدل على التكريم الخاص : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ ﴾ .

---

(١) ينظر : رسول الله فى القرآن الكريم - حسن كامل الملطاوى : ص ١٣ - دار المعارف بمصر

بينما تودى إخوانه النبيون بأسمائهم : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ ﴾ (١) ، ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ (٢) ، ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ (٣) ، ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ ﴾ (٤) ، ... إلخ

وقد لوحظ أنه حيث ذكر الله - تعالى - رسوله ﷺ فى القرآن باسمه إنما ذكره فى غير مقام النداء (٥) ، ومع ذلك أتبع اسم الحبيب ﷺ بوصف الرسالة .

---

(١) البقرة / ٣٥ .

(٢) الصافات / ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) ص / ٢٦ .

(٤) القصص / ٣١ .

(٥) وقد علل بعض أهل العلم لذلك بأنه لتعليم الناس بأنه رسول الله ﷺ وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، فلا تفاوت بين النداء والإخبار ، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره فى النداء : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ التوبة / ١٢٨ ، ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ ﴾ الأحزاب / ٦ ، ... إلخ .

(ينظر : الكشاف : ٥٠٤/٣ ، والبحر المحيط : ٤٥٠/٨ ، وروح المعانى : ٢١٧/٢١) .

وقد نقض هذا القول بعضهم معللاً بعدم ظهور أمر التعليم والتلقين فى نحو قوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ آل عمران / ١٤٤ ، وليس هناك إشارة إلى التعليم فى قوله : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ محمد / ٢ .

ينظر : روح المعانى : ٢١٧/٢١ ، ٢١٨ .

الأمر الذى جعل بعض أهل العلم يضيف علة لذكر النبى ﷺ باسمه فى القرآن وأنه إنما كان زيادة لتأكيد وصف البشرية التى عنى القرآن بتقريرها كل العناية .

(ينظر : من أسرار التعبير القرآنى فى سورة الأحزاب . د/ محمد أبو موسى ص ٤٥ - الناشر مكتبة وهبة ـ ط / ثانية ١٩٩٦م) .

وهذا التعليل لا يظهر فى سياق الآيات ، لأن جميع الآيات التى ذكر فيها النبى ﷺ باسمه قد جاءت فى سياق خطاب المؤمنين الذين يؤمنون به ، ويقرون بأنه بشر مرسل من الله تعالى ، وكذلك فهم لا يحتاجون إلى التأكيد على بشريته ﷺ .

كما أن تقرير البشرية يستدعى أن يعبر عنه بالوصف " بشر " ، فهذا أدخل فى تقرير بشريته ﷺ وتأكيدها ، أما التعبير بالعلم ، فيدل على أن الحكم المقصود من الكلام يتعلق بذات النبى ﷺ وشخصه دون أن يكون لأوصافه دخل فى هذا الحكم ، وهذا هو الواضح فى سياق الآيات التى جاء التعبير عن النبى ﷺ باسمه .

ويدل على ذلك اطراد التعبير عن السيدة مريم - رضى الله عنها - باسمها العلم فى كل المواضع الواردة فى القرآن ، وذلك لأن المعجزة تحققت معها فى شخصها دون اعتبار لأوصافها .

(ينظر : التعبيرات القرآنية التى جاءت على وتيرة واحدة دراسة بلاغية ص ١٥٤ محمد أحمد أحمد محمد - دكتوراه - كلية اللغة بالقاهرة ٢٠٠٠م) .

فمثلاً يقول سبحانه فى سورة آل عمران (١٤٤) : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ ، وفى الأحزاب (٤٠) : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ، وفى الفتح (٢٩) : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... الآية ﴾ .

وليس فى هذا انتقاص من أقدار إخوانه المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فإن أقدارهم فى محلها الرفيع الذى أراد الله كما نطق بها كتاب الله ، وإنما هو بيان لمقامه ﷺ بينهم كما جلاه القرآن الكريم .

وقد نبه أهل العلم إلى أن نداء النبى ﷺ بوصفه دون اسمه إنما هو للدلالة على سمو منزلته ورفعة مكانته عند الله تعالى ..

يقول الزمخشرى - رحمه الله - : " جعل نداءه بالنبى والرسول فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ (١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ (٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٣) وترك نداءه باسمه كما قال : " يا آدم " ، " يا موسى " ، " يا عيسى " ، " يا داود " ، كرامة له وتشريفاً ، وربأ بمحله ، وتنويهاً بفضله " . (٤)

ونداء النبى ﷺ للتعظيم يتلاقى مع التنويه بشأنه ﷺ ورفعة مكانته فى كثير من آيات القرآن الكريم ، كما فى تقديم العفو على العقاب فى قوله تعالى :

---

(١) الأحزاب / ١ .

(٢) التحريم / ١ .

(٣) المائدة / ٦٧ .

(٤) الكشاف : ٥٠٣/٣ ، ٥٠٤ .

وينظر : الفخر : ٤٩/٣ ، ٢٣٨/١١ ، والبحر المحيط : ٢٦٠/٤ ، ٣٢١ ، ٤٥/٨ ، ١٦٦/١٠ ، وإرشاد العقل السليم : ٣٦/٣ ، ٦٠ ، ٨٩/٧ ، نظم الدرر : ١٥٧/٤ ، ٦٧/٦ ، ٥٦/٨ ، وروح المعانى : ١٩٨/٦ ، ٥٧٦ ، ٢١٧/٢١ ، ١٩٠/٢٨ ، ١٩١ ، حاشية الشهاب : ١٥٦/٧ ، ٢٠٤/٨ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (١) ، وحفظه أينما كان كما فى قوله : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢) ، وكونه شهيداً على الرسل كما فى قوله : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (٣) ، وشرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره كما فى قوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(٤)

وغير ذلك الكثير مما يدل على سمو منزلة النبى ﷺ .

وإذا كان العلماء قد ذكروا أن نداء النبى ﷺ بأوصافه للتعظيم والتشريف إلا أنهم لم يذكروا الفرق بين ندائه بالرسول فى بعض المواضع ، وبالنبى فى البعض الآخر ، فقد نبهوا إلى أن نداء النبى ﷺ بالرسول لم يأت إلا فى موضعين ، مع أنه جاء النداء بالنبى فى كثير من المواضع دون تعليل لذلك . (٥)

الأمر الذى حدا بى إلى جمع هذه الشواهد التى نادى فيها الحق سبحانه نبيه ﷺ بأوصافه لدراستها دراسة متأنية لبيان الوجه فيها ، ذاكراً مدى ملاءمة الوصف للسياق الوارد فيه ، مع إيراد الأدلة والبراهين التى تقوى ذلك وترجحه .

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتى فى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة .

= فقدمت لهذه الدراسة ببيان أهمية هذا الموضوع ، والفائدة المرجوة من دراسة شواهده ، وأسباب الإقدام عليها .

---

(١) التوبة ٤٣ .

(٢) الطور ٤٨ .

(٣) النساء ٤١ .

(٤) الشرح ١ - ٤ .

(٥) ينظر : القبس : ٢٣٨/١١ ، وحاشية الجمل : ١/ ٤٠ .

= أما التمهيد ، فقد تكلمت فيه عن أسلوب النداء فى التراث البلاغى منبهاً على مفهومه فى اللغة والاصطلاح ، وأشهر أدواته ، وأقسامها ، وسر اختصاص (يا) بالنداء فى الذكر الحكيم ، مع الإلماح إلى علاقة النداء بمقام الخطاب فى هذا الكتاب المعجز .

= أما المبحث الأول : فقد تناولت فيه أسرار نداء النبى ﷺ بوصف (الرسول) فى القرآن الكريم .

= وفى المبحث الثانى : عرضت لأسرار النداء بوصف النبوة (النبى) .

= وأما المبحث الثالث : فقد ذكرت فيه أسرار نداءه ﷺ بوصفى (المزمل) و (المدثر) فى القرآن الكريم

= والخاتمة : ذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها من هذه الدراسة.

ثم ذيلت هذه الدراسة بفهرس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وفهرس للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

الدكتور

سلامه دردير محمد على

أسلوب النداء فى "التراث البلاغى"

لقد اهتم أهل العلم [١] منذ القدم بأسلوب النداء ، لأن بيان حقيقته بعد وظيفة لغوية ، ومجازاته بيانية ، ونكات اختيار الحقيقة أو مجاز من مجازاته وظيفة علم البلاغة . [٢]

والنداء فى اللغة معناه : الدعاء ، وكسر النون أكثر من ضمها ، والمد فيهما أكثر من القصر وناديته مناداة ونداء ، من باب قاتل إذا دعوته .

والنداء رفع الصوت وظهوره ، وقد يقال للصوت المجرد .

وأصل النداء : من الندى ، أى : الرطوبة – يقال : " صوت ندى " أى : رفيع .

واستعارة النداء للصوت من حيث إن من يكثر الرطوبة فى حسن كلامه ؛ ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق . يقال : ندى ، وأنداء ، وأندية ، ... " [٣] .

والنداء فى اصطلاح البلاغيين [٤] . : طلب الإقبال حساً أو معنى بحرف نائب مناب "أدعو" سواء أكان ذلك الحرف ملفوظاً كـ " يا زيد " ،

---

(١) ينظر : الكتاب لسيبويه : ١٨٢/٢ ، ٢٠٢ ــ تح / عبد السلام هارون ، ط / الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧م ، والمقتضب للمبرد : ٢٠٢/٤ ، ٢٢٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ – تح / محمد عبد الخالق عضيمة – دار إحياء التراث الإسلامى ، ط / ثالثة ١٩٩٤م ، والكشاف للزمخشرى : ٨٩/١ ، ٩٠ ، دار الريان / ثالثة ١٩٨٧م ، وشرح الأشمونى على ألفية ابن مالك : ١٣٥/٣ ، ط / دار إحياء التراث العربى (بدون)

(٢) ينظر : حاشية الدسوقى : ٣٣٤/٢ (شروح) ط / دار السرور .

(٣) ينظر : لسان العرب لابن منظور : ٣١٥/٥ ، ٣١٦ ، (ندى) / دار المعارف سنة ١٣٩٣هـ ، والمصباح المنير للفيومى : ٥٩٩/٢ – تح د / عبد العظيم الشناوى ، طبعة دار المعارف .

(٤) ينظر : مواهب الفتاح لليعلوى : ٣٣٣/٢ (شروح) ، والمطول للسعد : ص ٤٣٠ ، ٤٣١ – دار الكتب العلمية بيروت / أولى ٢٠٠١م ، وبغية الإيضاح : ٥٨/٢ – ط / محمد على صبح / ثامنة ، وشرح الجوهر المكنون للإمام الأخضرى ، وحاشية الشناوى عليه ص ١٠٩ ، مطبعة حجازى بالقاهرة .

أو مقدراً كـ ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ [١] [٢]

وأدوات النداء على المشهور ست [٣] وهى : (يا ، وأيا ، وهيا ، وأى ، والهمزة ، ووا) .

وقد نبه البلاغيون إلى تقسيم هذه الأدوات من حيث نداء القريب والبعيد : فمنها ما ينادى به القريب (الهمزة ، وأى) وباقى الأدوات لنداء البعيد . [٤] .

= وقد ينزل المنادى القريب منزلة البعيد ؛ إشعاراً بعلو منزلته وبعد مكانته ، فيبعد مكانته بمثابة بعد مكانه ، فيستعمل معه أدوات النداء الموضوعة

---

(١) يوسف ٢٩ .

(٢) هذا التعريف يتلاقى مع ما قرره النحويون فى تعريفهم للنداء بأنه : " طلب الإقبال بحرف نائب مناب " أدعو " ، ملفوظ به أو مقدر " والمراد بالإقبال : ما يشمل الإقبال الحقيقى والمجازى والمقصود به الإجابة كما فى نحو : " يا الله " .

وأعرض لنيابة حرف النداء عن " أدعو " بأن " أدعو " نحو ، والنداء إنشاء !

وأجيب : بأن " أدعو " نقل إلى الإنشاء .

ينظر : شرح المفصل لابن يعيش : ١١٨/٨ ــ طبعة عالم الكتب ــ بيروت (بدون) ، وحاشية الصبان على الأشمونى : ١٣٣/٣ ــ دار إحياء الكتب العربية .

(٣) وقيل : إن أدوات النداء ثمانية وهى : الهمزة ، وأى مقصورتين وممدودتين ، وياء ، وأيا ، وهيا ، ووا " . وحكى الكوفيون عن العرب الذين يطول بعريتهم " آى " و " آ " بالمد فتصبح بذلك حروف النداء عندهم ثمانية أيضاً .

ينظر : مفتاح العلوم للسكاكى : ص ١٠١ تح / نعيم زرزور – دار الكتب العلمية ، ثانية ١٩٨٧م ، وحاشية فتح الجليل للإمام السجاعى على شرح ابن عقيل : ٢٣٣ (بدون) ، وهمع الهوامع فى شرح جمع الجوامع للسيوطى : ٢٨/٢ تح / أحمد شمس الدين ، ط / دار الكتب العلمية / أولى ١٩٩٨ .

(٤) ينظر : حاشية الدسوقى : ٣٣٤/٢ ، ومعانى التراكيب – د/ عبد الفتاح لاشين : ١١٧/٢ ، دار الطباعة المحمدية ١٩٨٣م ، والأساليب الإنشائية وأسرارها فى القرآن الكريم – د / صباح عزاز ص ٢٧٦ ، ط / الأمانة / أولى ١٩٨٦م .

لنداء البعيد ... كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ (١)

= وربما ينزل المنادى القريب منزلة البعيد ؛ إشعاراً له بانحطاط منزلته كأنه بعيد عن القلب ، قصى عن الاهتمام .

كقولنا عمن هذا شأنه : " من أنت يا هذا ؟! " .

فهذا مما يشعر بأن المنادى وضيع المنزلة ، منحط المكانة ، بعيداً عن القلب ، فنزل هذا البعد النفسى والرتبى منزلة البعد المكانى ، فينادى بالطرق الموضوعة لنداء البعيد .

= وأحياناً ينزل المنادى القريب منزلة البعيد ؛ إشارة إلى أن السامع غافل أو ذاهل ، فكأنه بعيد وغير حاضر : كأن تقول للغافل الذى تكاد تداهمه سيارة : " احترس يا رجل " .

وقد ينزل البعيد منزلة القريب ؛ لأنه حاضر فى الذهن ، قريب إلى القلب فتستعمل معه الأداة الموضوعة للقريب (٢) .

ومثال ذلك قول من فقد ولده ، فناداه وهو فى جوف الأرض: " أبى لا تبعد عنى " .

فقد نادى ابنه الميت الموارى فى باطن الأرض بالهمزة الموضوعة للقريب ، وما أبعد مكانه عنه ولكنه ماثل فى قلب ، شاخص فى عقله ، قريب من خاطره ، فهو كالمشاهد له .

---

(١) مريم ٤٤ .

(٢) ينظر : فى البلاغة - ٢ . د / عبد القادر حسين ص ١٥٣ ، ١٥٤- طبعة عالم الكتب / ط ١٩٨٤م ، ومعانى التراكيب : ٢/٢١٧ ، ٢١٨ .

= والنداء لون من الخطاب ، ولا يكون إلا فى أمر مهم ، وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوى كالأمر والنهى والاستفهام ، وغالباً ما يتقدم النداء ؛ لضمان اهتمام المخاطب وإصغائه وانتباهه ، وتنبيهه لما يلقى عليه . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ (١) ، ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) ، ﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ (٣) (٤)

وقد ذكر أهل العلم أن " يا " ينادى بها للعاقل . كقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ (٥) ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ (٦) .

وقد ينادى بها غير العاقل إذا أريد تنزيله منزلة العاقل المميز الذى يفهم ويعقل النداء .. كقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي .. ﴾ (٧) ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (٨) ، ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٩) .

فالنداء للأرض والسماء والجبال والنار نداء لغير العاقل الذى لا يستجيب ؛ لأنها لا تسمع ، فقوله الحق سبحانه منزلة العاقل إذا أمره أطاع ،

---

(١) البقرة / ٢١ .

(٢) الزمر / ١٦ .

(٣) هود / ٥٢ .

(٤) الأساليب الإنشائية - د / صباح عواد ص ٢٧٦ .

(٥) الأحزاب / ١٣ .

(٦) مريم / ٢٨ .

(٧) هود / ٤٤ .

(٨) سبأ / ١٠ .

(٩) الأنبياء / ٦٩ .

وإذا طلب منه أذعن ، وإذا دعاه استجاب ؛ إشعاراً بأنه غير ممتنع على القدرة الله من جهة ، وعلى عزة الألوهية من جهة أخرى .[1]

= كما ذكر أهل العلم أن " يا " ينادى بها البعيد حقيقة أو حكماً ، وقد ينادى به القريب تعظيماً لشأنه أو استقصار الداعى نفسه ، كقوله : " يا رب " ، وهو هنا لا يقصد بندائه طلب إقباله عليه ، بل يقصد توجه قلبه إليه ؛ ليدل بذلك على أنه .

وعلى كل فهو من هضم النفس والإقرار بالتقريط فى جانب الله مع أمل فى إجابة الدعاء ، وقد قال الله : ﴿ إِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [2] [3]

وقد ذكر بعضهم : أنها حقيقة فى القريب والبعيد ؛ لاستعمالها فيهما على السواء ، وأن دعوى المجاز فى إحداهما خلاف الأصل .[4]

وذكر الزمخشرى : أنها حقيقة فى البعيد ، ولا تستعمل فى القريب إلا مجازاً ؛ لتنزيله منزلة البعيد ، إما لاستبعاد الداعى نفسه عن مرتبة المنادى ، أى : تصور نفسه فى مكان بعيد عن تلك الحضرة ، فقولنا : " يا ألله " مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد .

أو للتنبيه على عظم المدعو إليه وعلو شأنه حتى كأن المنادى مقصر فى أمر ، غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال نحو :﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ... الآية﴾ [5] .

---

(١) فى البلاغة : ص ١٥٢ ، وقد ذكر ابن مالك فى التسهيل أن " يا " إن وليها " ليت " أو " رب " أو حيا " فهى للتنبيه ، لا للنداء . ينظر : التسهيل : ص ١٧٩ طبعة وزارة الثقافة .

(٢) البقرة / ١٨٦ .

(٣) ينظر : الإتقان للسيوطى : ص ١٤٦ ، دار مصر للطباعة ، والأساليب الإنشائية د/ صلاح ص ٢٨٠ .

(٤) دراسة الأساليب الإنشائية فى صحيح الترغيب والترهيب - للباحث ناصر راضى الزهرى ص ١١٠ (ماجستير) - مخطوط فى كلية اللغة العربية بأسيوط ٢٠٠١م .

(٥) المائدة / ٦٧ .

أو للحرص على إقبال المنادى ، أى : الرغبة والرضا بذلك ، فصار إقباله كالبعيد ؛ لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة قبل وقوعه فى غاية البعد . نحو قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [1]

أو للتنبيه على بلادة المنادى فكأنه بعيد من التنبيه لا يسمع .. نحو : "تنبه يا أيها الغافل اسمع" أو لانحطاط شأنه فكأنه بعيد عن مجلس الحضور . نحو : " من أنت يا هذا " .[2]

هذا وقد انفردت (يا) التى هى أم الباب بعدة مميزات منها :

اختصاصها وحدها بنداء اسم الله عز وجل .

لا يقدر سواها عند الحذف ؛ لكثرتها فى تراكيب النداء .[3]

كونها دائرة فى وجوهه ما كان منها للنداء الخالص ، وما قصد به معنى مجازى .

كونها متعينة فى نداء (أى) و (أيه) ، وفى الاستغاثة .[4]

---

(١) المائدة / ٦٧ .

(٢) الكشاف : ٨٩/١ ، وينظر : حاشية الصبان : ٣٣٤/٢ ، والمطول للسعد : ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، دار الكتب العلمية - بيروت / ط أولى ٢٠٠١م ، ومن أسرار التعبير فى القرآن (حروف القرآن) - د / عبد الفتاح لاشين ص ١٧٦ - شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٣) يقول الفيروز آبادى :

" والقرآن المجيد مع كثرة النداء فيه لم يأت فيه نداء بغير " يا " ، وهى أكثر حروف النداء استعمالاً ، ولهذا لا يقدر عند الحذف سواها ، ولا ينادى اسم الله إلا بها " اهـ .

ينظر بصائر ذوى التمييز : ٤٢٢/٥ ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤) ينظر : دراسة الأساليب الإنشائية فى الترغيب والترهيب : ص ٢٩٠ ، وفن البلاغة : ص ١٥١ ، ودلالات التراكيب د/ أبو موسى ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، دار الضامن - ط / ثانية ١٩٨٧م ، والبيان فى نحو القرآن - د / محمد بدرى إسماعيل : ص ٩٤ ط أولى (بتصرف) .

وقد ذكر الزمخشري تعليلاً للنداء بـ " يا أيها " وكثرة وروده في القرآن الكريم ، لأن فيه أوجهاً من التأكيد وأسباب المبالغة : التأكيد والتنبيه في " يا " ، والتنبيه في " ها " ، والتدرج من الإبهام إلى التوضيح في " أي " ، والاسم المعرف بعدها ، وتكرار المذكر ، واختيار لفظ البعيد وتأكيد معناه ، تناسباً مع المقامات في إفادة المبالغة والتوكيد ؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ، ووعده ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك مما أنطق الله به كتابه أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون ، فاقتضت الحال أن ينادوا بالأوكد الأبلغ .[1]

النداء وعلاقته بمقام الخطاب :

ولما كان النداء لوناً من الخطاب ، فقد نبه أهل العلم إلى ارتباطه بخطابات مختلفة تستدعيه ، يأتي في مقدمتها " خطاب العين " و " خطاب المدح " .

يقول الزركشي في معرض حديثه عن وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن : " (خطاب العين) : نحو ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [2] ، ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾ [3] ، ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ [4] ، ﴿ يا موسى ﴾ [5] ، ﴿ يا عيسى ﴾ [6] .

---

(١) الكشاف : ١/٩٠ ، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ص ٣٧٩ ، دار الشامي ، طبعة ثانية ١٩٨٨م ، والأساليب الإنشائية د/ صباح دراز : ص ٢٨٠ ، ومن أسرار التعبير في القرآن د/ لاشين ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) البقرة / ٣٥ .

(٣) هود / ٤٨ .

(٤) الصافات / ١٠٥ .

(٥) الأعراف / ١٤٤ .

(٦) آل عمران / ٥٥ .

ولم يقع في القرآن النداء بـ " يا محمد " بل بـ " يا أيها النبي " و " يا أيها الرسول " ، تعظيماً له وتبجيلاً ، وتخصيصاً بذلك عن سواه .[1]

ويقول في معرض حديثه عن خطاب المدح : " ومن هذا النوع الخطاب بـ " يا أيها النبي " ، " يا أيها الرسول " ، ولهذا نجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول ، وكذا عكسه : كقوله في مقامك الأمر بالتشريع العام : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾[2] وفي مقام الخاص : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ [3] ، ومثله: ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] وتأمل قوله : ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [5] في مقام الاقتداء بالكتاب والسنة،ثم قال:﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾[6] فكأنه جمع له المقامين : معنى النبوة الرسالة ؛ تعديدا للنعم في الحالين ..

وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام ، لكن مع إرادة التعميم كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ [7] ، ولم يقل : " إذا طلقت " أ هـ [8] .

---

(١) البرهان : ٢/٤٢٦ ، ٤٢٧ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت / أولى ١٩٨٨م .

(٢) المائدة / ٦٧ .

(٣) التحريم / ١

(٤) الأحزاب / ٥٠ .

(٥) الحجرات / ١ .

(٦) الحجرات / ٢ .

(٧) الطلاق / ١ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ٢/٤٢٧ ، وينظر من أسرار التعبير في القرآن د/ لاشين ص ١٧٩ ، ١٨٠

وقد اقتصرت على ذكر هذين النوعين ؛ لما لهما من وثيق الصلة بهذه الدراسة [1] ، فهي تقوم بإبراز سر مناداته ﷺ في القرآن الكريم بوصفه " النبي " ، " الرسول " و " المزمل " و " المدثر " ، دون مناداته بصريح اسمه (محمد) ﷺ ، ومدى ملاءمة كل وصف للموضع الوارد فيه ، والسر في اختصاصه به.

أسأل الله تعالى العون والسداد ، وأن يجنبني الخطأ والزلل إنه نعم المجيب .

---

(١) كذلك لم يكن بيان أغراض استعمال النداء في غير معناه الأصلي من الأمور التي ينبغي أن تعول عليها هذه الدراسة ، لبعدها عن الغرض الذي من أجله قامت ، ولمراجعة هذه الأغراض ينظر ما يلي :

الإيضاح للخطيب : ص ٨٦ ، ط دار الجيل - بيروت - لبنان .

حاشية الدسوقي : ٣٣٤/٢ - ٣٣٧ (شروح) .

المطول للسعد : ص ١٣١ .

بغية الإيضاح : ٥٨/٢ ، ٥٩ - ط محمد علي صبيح وشركاه .

في البلاغة : ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

دراسات وتعليقات في علم المعاني د/ يحيى محمد يحيى : ١٢٣/٢ / ١٢٤ ، ط الأولى / أول ١٩٨٩م

معاني التراكيب : ١١٨/٢ ، ١١٩ ، ١٢٠ .

المبحث الأول

الأسرار البلاغية في نداء النبي ﷺ بوصف الرسالة (الرسول)

جاء النداء بوصف " الرسول " في الذكر الحكيم في موضعين :

الموضع الأول : في سياق النهي عن الحزن من قول الذين يسارعون في الكفر ، وعدم المبالاة بأمرهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... الآية ﴾ المائدة / ٤١ .

الموضع الثاني : في سياق أمره ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه من ربه وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... الآية ﴾ المائدة / ٦٧ .

والمتأمل لهذين الموضعين اللذين جاء النداء فيهما بـ " الرسول " دون " النبي " يجد أن وصف " الرسول " هو الملائم لسياق الكلام أكثر من وصف " النبي " ؛ لأن النداء بـ " الرسول " جاء بعده النهي عن الحزن في موضع ، والأمر بالتبليغ في الموضع الثاني ، ولا شك أن النهي عن الحزن من قول الذين يسارعون في الكفر ناتج عن التبليغ ؛ لأن التكذيب إنما كان بعد تبليغ ما أمر به من ربه كما أن التبليغ المأمور به ﷺ من متطلبات الرسول دون النبي.[1]

وفي هذا تناغم واضح مع معنى " الرسول " ومدلوله اللغوي ، والشرعي : فلفظ " الرسول " مأخوذ من الأصل اللغوي لكلمة " رسل " ، وأصل " الرسل " : الانبعاث على التؤدة ، ومنه " الرسول " : المبعث وتارة يطلق على محتمل القول والرسالة ، وقد يكون مبعث من له اختيار نحو إرسال الرسل . [2]

---

(١) ينظر : نظم الدرر للبقاعي : ٦٩/٦ ، دار الكتب العلمية - بيروت / أول ١٩٩٥م ، ط الحلبي / ثالثة ١٩٦٨م ، وتفسير الطبري : ٢٣٢/٦ .

(٢) ينظر : المفردات للراغب : ١٩٥/٣ ، كتاب الجمهورية .

ورسالة الرسول : دعوته الناس إلى ما أوحى إليه .[1]

وتحتمل كلمة " رسول " في اللغة المعاني التالية :

المبعوث أو الوفد من شخص لآخر، كأن أقول:أنا رسول فلان إليك .

التوجيه بأمر ما ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ النمل / ٣٥

تتابع الشيء بانتظام وعدم انقطاعه أو تقطعه ، كأن تقول : " جاءت الإبل رسلاً " أي : متتابعة ، أو من " رسل اللبن " إذا تتابع دره .[2]

وعلى ذلك فالرسل إنما سموا بذلك ؛ لأنهم وجهوا من قبل الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ المؤمنون / ٤٤ .

وهم مبعوثون برسالة معينة مكلفون بحملها وتبليغها ومتابعتها فهو " فعول " بمعنى " مفعول "

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره علماء الشرع في تحديدهم لمعنى " الرسول " و " الرسالة " :

أن الرسالة : فيما اختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي أمر بتبليغه .

والرسول : هو إنسان حر من بني آدم خال من العيوب المنفرة أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه[3] .

---

(١) ينظر : المعجم الوجيز : ص ٢٦٣ ، (مجمع اللغة العربية) - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

(٢) لسان العرب لابن منظور : ١٦٤٥/٣ (ر س ل) المعجم الإسلامي بولاق - القاهرة ، والمصباح المنير للفيومي : ص ٢٢٩ ، وأصول الدين لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي : ص ١٥٣ ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٣) ينظر : شرح البيجوري على جوهرة التوحيد : ص ١٤١ - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م ، وحقائق أنوار العقول للإمام عبد الله حميد السالمي : ٨٦/١ م / عبد الرحمن عبدوا - مكتبة الاستقامة - مسقط ، وأحسن الكلام في الفتاوى والأحكام الشيخ عطية محمد سالم ج ٦/٣ ، دار الغد العربي / أولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

وعلى هدى ما سبق نجد أن النداء بالرسول يأتي حينما يكون الأمر متعلقاً بالتبليغ ، كما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ المائدة / ٩٩ .

ولنرجع إلى سياق كل موضع من الموضعين السابقين وربط الوصف بالسياق الوارد فيه ، مع بيان مناسبة الوصف لبقية الآية ، فأقول وبالله التوفيق :

- نداء النبي ﷺ بوصف الرسالة في مفتتح نهيه عن الحزن على الكفار بسبب مسارعتهم في الكفر :

أما عن قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ المائدة / ٤١ .

فإنه سبحانه وتعالى لما بين بعض التكاليف والشرائع في الآيات المتقدمة على هذه الآية ، وكان قد علم من بعض الناس كونهم متسارعين إلى الكفر لا جرم صبر رسوله ﷺ على تحمل ذلك ، ونهاه بأن لا يحزن لأجل ذلك ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ [1] الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ الآية [2]

---

(١) قرئ (لا يحزنك) بضم الياء و (يسرعون) والمعنى : لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر ، وذلك بسبب اجتهادهم في استخراج وجوه الكيد والمكر في حق المسلمين وفي معاونتهم في موالاة المشركين ، فإن ناصرك عليهم وكافيك شرهم .

يقال : " أسرع فيه الشيب وأسرع فيه الفساد " بمعنى : وقع فيه سريعاً ، وكذلك مسارعتهم في الكفر عبارة عن إقدامهم أنفسهم فيه على أسرع الوجوه متى وجدوا فيه فرصة . [مفاتيح الغيب : ٢٢/٤] .

(٢) ينظر : البحتري وحاشية الشهاب عليه : ٢٤٣/٣ ، دار صادر - بيروت ، المحرر الوجيز لابن عطية ١٠٠/٥ ، ١٠١ ، ومفاتيح الغيب : ٢١/٦ .

وفى مخاطبته ﷺ بعنوان الرسالة تشريف وإشعار بما يوجب عدم الحزن .

ولذا جاء التعبير عنهم بالموصول ؛ للإشارة بما فى حيز صلته إلى مدار الحزن .

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكفرة عن أن يحزنوه ﷺ بمسارعتهم فى الكفر ، لكنه فى الحقيقة نهى له ﷺ عن التأثر من ذلك والمبالاة ، والغرض منه مجرد التسلية على أبلغ وجه وآكده ، فإن النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى وقطع له من أصله . (١)

ففى هذا تسلية له ﷺ وتأنيس ، وأمر بالصبر والرفق بنفسه ، وعليه فيأبه راجع إلى ما يرد مدحاً مجرداً عن الطلب ، وهو ما يتناغم معه ذكر الوصف الأخص من محمود الصفات فى طريقة الخطاب ، وهو لفظ " الرسول " دون وصف " النبى " الأعم ، كما نبه إليه العلامة البقاعى - رحمه الله - . (٢)

والمعنى على هذا : لا تجعلهم يحزنونك ، أى : لا تهتم بما يفعلون مما شأنه أن يدخل الحزن على نفسك .

وهذا استعمال شائع وهو من استعمال المركب فى معناه الكنائى ونظيره قولهم : " لا أعرفنك تفعل كذا " ، أى : لا تفعل حتى أعرفه .

وقولهم : " لا ألفينك ههنا ، ولا أرينك هنا " . (٣)

ولما كانت الآية الكريمة فى ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت فى التوراة ، إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام ، فهذا أشد جرأة من التحريف الآخر ، كان قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ أبلغ فى

---

(١) ينظر : روح المعانى للآلوسى : ٤/٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ومحاسن التأويل للقاسمى ، ٤/١٣٩ ، ط / محمد باسل - دار الكتب العلمية بيروت / أولى ١٩٩٧م .

(٢) ينظر : نظم الدرر : ٦/٦٩ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٦/١٩٧

تحريف الكلام ؛ لأن لفظ " بعد " يقتضى أن مواضع الكلم مستقرة ، وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة فى كتاب التوراة . (١)

وهذا بلا شك يحتم على رسول الله ﷺ أن يقوم بأخص أدوار رسالته وهو التبليغ للناس بأمر هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى فى توراته ، وهو ما يتناغى ومعنى الوصف الوارد فى سياق الآية الكريمة .

وثم أمر آخر وهو : أن التجاء اليهود إلى تحكيم النبى ﷺ عندما اختلفوا فى حد الزانى " حين زنى فيهم رجل بامرأة من أهل خيبر أو أهل فدك " بين أن يرجم ، وبين أن يحمم - أى : يلطخ وجهه بالسواد تمثيلاً به - كان القصد منه - على ما ذهب إليه بعض أهل العلم - اختباره ﷺ فيما يدعى من العلم بالوحى ، وكان حكم الرجم عندهم مكتوماً لا يعلمه إلا خاصة أحبارهم ، ومنسياً لا يذكر بين علمائهم ، فلما حكم عليهم به أبوا .

ويؤيد ذلك ما ظهر من مرادهم فى إنكارهم وجود حكم الرجم .

ففى صحيح البخارى(٢) : أنهم أنكروا أن يكون حكم الرجم فى التوراة ، وأن النبى ﷺ جاء المدراس - هو بيت تعليم اليهود - فأمر بالتوراة فنشرت ، فجعل قارئهم يقرأ ويضع يده على آية الرجم ، وأن النبى ﷺ أطلعه الله على ذلك ، فأمره أن يرفع يده ، وقرئت آية الرجم ، واعترف ابن صوريا بها . (٣)

---

(١) ينظر : درة التنزيل وغرة التأويل - الخطيب الإسكافى ص ٦٧ ، - المكتبة التوفيقية - القاهرة ، التحرير والتنوير : ٦/٢٠٠ .

(٢) صحيح البخارى ٣/١٣٣٠ ، رقم ٣٤٣٥ باب قول الله تعالى : " يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - الآية " كتاب المناقب .

(٣) ينظر : جامع البيان للطبرى : ٦/٢٣٢ ، ٢٣٨ ، وتفسير البحر : ٤/٢٣ ، ٢٤ ، وحاشية الشهاب : ٣/٢٤٣ ، وحاشية الشيخ زادة على البيضاوى : ٣/٥٢٤ ، دار الكتب العلمية - بيروت / أولى ١٩٩٩م ، والمحرر الوجيز : ٥/١٠٠ ، ١٠١ ، والتحرير والتنوير : ٦/١٩٦ ، ١٩٧ .

وأيا كان الأمر فإن فى هذا وغيره ما يؤيد اختصاص الآية الكريمة بالوصف الوارد فيها الرسول ، لأن التبليغ هو المنوط بمن كلف عن طريق الوحى بإظهار ما حاول هؤلاء كتمانه أو مداراته فالأمر ثم خطير لا يتلاءم معه إلا إبلاغ القوم بما شرعه الله تعالى بخصوص ما جاءوا يسألون بشأنه .

- نداء النبى ﷺ بوصف الرسالة فى مفتتح أمره بتبليغ الرسالة والترهيب من كتمان شىء منها :

وأما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة / ٦٧ .

فإنه سبحانه وتعالى لما بين فى الآيات المتقدمة على هذه الآية أن من أريدت سعادته يؤمن ولابد ، ومن أريدت شقاوته لا يؤمن أصلاً ، وأن من أقام ما أنزل عليه سعد ، ومن كفر بشىء منه شقى ، وكان ذلك ربما فتر عن الإبلاغ . قرن بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ قوله حاثاً على الإبلاغ لإسعاد من أريد للسعادة ، وهم الأمة المقتصدة منهم وإن كانوا قليلاً ، وكذا إبلاغ جميع من عداهم .﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ... الآية ﴾.(١) وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية وجوهاً كثيرة (٢) إلا أن الأولى حملة على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى ، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم ؛ وذلك لأن ما قبل

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٥٠٢/٢ ، وحاشية الشهاب : ٢٦٤/٣ ، والمحرر الوجيز : ١٥٤/٥ ، ١٥٥ .

(٢) من هذه الروايات ما يلى : أنها نزلت فى قصة الرجم والقصاص على ما تقدم فى قصة اليهود .

نزلت فى عيب اليهود واستهزائهم بالدين والنبى ﷺ سكت عنهم ، فنزلت الآية .

لما نزلت آية التخيير وهو قوله تعالى : " يا أيها النبى قل لأزواجك " الأحزاب / ٢٨ فلم يعرضها عليهن خوفاً من اختيارهن الدنيا ، فنزلت .

نزلت فى أمر زيد ، وزينب بنت جحش ...

نزلت فى الجهاد ، فإن المنافقين كانوا يكرهونه ، فكان يمسك أحياناً عن حثهم على الجهاد .

لما نزل قوله تعالى : " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم " الأنعام ١٠٨ ، يعنى معايب آلهتهم ولا تخفها عنهم والله يعصمك من الناس .. إلى آخر هذه الروايات .

ينظر : تفسير الفخر الرازى : ٩٠/٦ ، ٩١ .

هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة فى البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها .(١)

ومعنى (بلغ) أى : واصبر على تبليغ ما أنزلته إليك من كشف أسرارهم وفضائح أفعالهم ، فإن الله يعصمك من كيدهم ، ويصونك من مكرهم

وروى الحسن عن النبى ﷺ قال(٢) : " إن الله بعثنى برسالته ، فضقت بها ذرعاً وعرفت أن الناس يكذبونى ، واليهود والنصارى وقريش يخوفونى ، فلما أنزل الله فى هذه الآية زال الخوف بالكلية ".(٣)

وفى ندائه ﷺ بعنوان الرسالة (الرسول) تشريف له ، وإيذان بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من التبليغ .(٤)

ولا شك أن التبليغ من متطلبات الرسول دون النبى ، وهذا ملائم لمعنى الرسول كما سبق التنبيه إليه .

والأمر بالتبليغ فى الآية مستعمل فى طلب الدوام ، كقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ النساء / ١٣٦ .

وفى الإتيان بضمير المخاطب فى قوله (إليك من ربك) إيماء عظيم إلى تشريف الرسول ﷺ بمرتبة الوساطة بين الله والناس ، إذ جعل الإنزال إليه ، ولم يقل " إليكم أو إليهم " كما قال فى آية آل عمران (١٩٩) : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

---

(١) تفسير الفخر : ٩١/٦ .

(٢) الحديث فى مسند إسحاق بن راهويه بلفظ : " إن الله أرسلنى برسالة ، فضقت بها ذرعاً ، وعلمت أن الناس مكذبى ، فوعدنى أن أبلغها أو معذبى "

ينظر : المسند : ٤٠٢/٤ ، رقم ٤٤٣ ، مكتبة الإيمان - المدينة المنورة ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

(٣) تفسير الفخر : ٨٩/٦ ، وينظر : روح المعانى : ٣٥٥/٤ .

(٤) تفسير القاسمى : ١٩١/٤ ، ١٩٢ ، وجامع البيان للطبرى : ٣٠٧/٦ ، ونظم الدرر : ٥٠٢/٢ ، وروح المعانى : ٣٥٥/٤ .

الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ﴾ ،وقوله : ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ النحل / ٤٤ .[1]

وقوله : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ جاء الشرط " بإن " التي شأنها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط ، لأن عدم التبليغ غير مظنون برسول الله ﷺ ، وإنما فرض هذا الشرط ليبنى عليه الجواب ، وهو قوله (فما بلغت رسالته) ؛ ليضيق الذين يرجون أن يسكت رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن النازل بفضائحهم من اليهود والمنافقين ، وليكف من علم الله أنهم سيكفرون ، فيزعمون أن قرآناً كثيراً لم يبلغه رسول الله ﷺ الأمة .

ومعنى " لم تفعل " : لم تفعل ذلك ، وهو تبليغ ما أنزل إليك .

وهذا حذف شائع في كلامهم ، فيقولون : فإن فعلت ، أو فإن لم تفعل ، قال تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ﴾ يونس / ١٠٦ .

أي : " إن دعوت ما لا ينفعك " يحذف مفعول " فعلت ، ولم تفعل " ؛ لدلالة ما تقدم عليه

ومعنى ترتب هذا الجواب على هذا الشرط : " أنك لم تبلغ جميع ما أنزل إليك فتركت بعضه كنت لم تبلغ الرسالة " ؛ لأن كتم البعض مثل كتمان الجميع في الاتصاف بعدم التبليغ ؛ ولأن المكتوم لا يدرى أن يكون في كتمانه ذهاب بعض فوائد ما وقع تبليغه ، وقد ظهر التغاير بين الشرط وجوابه بما يدفع الاحتياج إلى تأويل بناء الجواب على الشرط ، إذ تقدير الشرط : " إن لم تبلغ ما أنزل " والجزاء : " لم تبلغ الرسالة " ، وذلك كاف في صحة بناء الجواب على الشرط بدون حاجة إلى تأولوه مما في الكشاف وغيره .[2]

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٦/٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) ينظر : الكشاف : ١/٥٥٨ ، ٦٥٩ ، والفخر : ٦/٨٩ ، ٩٠ ، وروح المعنى : ٤/٣٥٥ ، ٣٥٦ .

ثم يعلم من هذا الشرط أن تلك مرتبة لا تليق بالرسل ، فيتضح ذلك أن الرسول لا يكتم شيئاً مما أرسل به .

وتظهر فائدة افتتاح الخطاب بـ " يا أيها الرسول " للإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي بعده ، وفائدة اختتامه بقوله : " فما بلغت رسالته "[1]

وفي افتتاح قوله : " والله يعصمك من الناس " باسم الجلالة للاهتمام به ؛ لأن المخاطب والسامعين يترقبون عقب الأمر تبليغ كل ما أنزل إليه أن يلاقي عنتاً وتكالباً عليه من أعدائه فافتتح تطمينه بذكر اسم الله ؛ لأن المعنى أن هذا ما عليك ، فأما ما علينا فالله يعصمك .

ومما يجب الوقوف عليه هنا القول بأن هذه الآية – على ما به عليه بعض أهل العلم – قد جاءت على وتيرة قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ الآية . وقوله : ﴿ ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ .

فكما كانت تلك الآية في وصف حال المنافقين تليت بهذه الآية لوصف حال أهل الكتاب ، والفريقان متظاهران على الرسول ﷺ : فريق مجاهر ، وفريق مستتر ، فعاد الخطاب للرسول ثانية بتثبيت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة ، ويجهد في ذلك ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار ؛ إذ كان نزول هذه السورة في آخر مدة النبي ﷺ ؛ لأن الله – تعالى – دائم على عصمته من أعدائه وهم الذين هون أمرهم في قوله : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ ، فهم المعنيون من " الناس " في هذه الآية ، فالمأمور بتبليغه بعض خاص من القرآن .

---

(١) التحرير والتنوير : ٦/٢٦١ ، ٢٦٢ .

ولذلك أعيد الفتاح الخطاب له ﷺ بوصف " الرسول " المشعر بمنتهى شرفه ، إذ كان واسطة بين الله وخلقه ، والمذكر له بالإعراض عمن سوى من أرسله .

وهذا الوصف فى هذا الخطاب الثانى موقع زائد على موقعه فى الخطاب الأول ، وهو ما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الكلام الآتى بعده ، وهو قوله : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ .

فكما ثبت جنانه بالخطاب الأول أن لا يهتم بمكائد أعدائه ، حذر بالخطاب الثانى من ملاينتهم فى إبلاغهم قوارع القرآن ، أو من خشيته إعراضهم عنه إذا أنزل من القرآن فى شأنهم ؛ إذ لعله يزيدهم عناداً وكفراً ، كما دل عليه قوله فى آخر هذه الآية : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ والله تعالى أعلم .

المبحث الثانى

الأسرار البلاغية فى نداء النبى ﷺ بوصف النبوة (النبى)

" النبى " فى اللغة قيل : مأخوذ من النبأ ومعناه : الخبر ، وهو فعيل بمعنى مفعول ؛ لأنه منبأ ، أى : يخبره الله تعالى . أو فعيل بمعنى فاعل ؛ لأنه يخبر غيره ، بما أطلعه الله عليه ، وقيل : مأخوذ من " النبوة " وهو ما ارتفع من الأرض . يقال : نبا الشىء إذا ارتفع ، فالمعنى على هذا أن النبى مرتفع عن طور البشرية باختصاص الوحى وخطاب الله تعالى .

وقيل: مأخوذ من نبأ من مكان كذا إلى مكان كذا ، إذا خرج منه والمناسبة أنه ما جاء نبى بشريعة إلا عاداه قومه وأخرجوه .

وقيل : مأخوذ من النبى بمعنى " الطريق الواضح ، ومنه قيل للرسل أنبياء ؛ لكونهم طريق الهداية الموصلة إلى الله تعالى .

وسمى نبياً ؛ لأنه نبئ وأخبر من قبل الله تعالى . (١)

و " النبى " فى اصطلاح المتكلمين هو : إنسان ذكر حر من بنى آدم خال من العيوب المنفرة أوحى الله إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لا (٢)

ومما سبق يتضح الفرق بين " النبى " و " الرسول " ، فالنبى أعم من الرسول فبينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل رسول نبى ، ولا عكس .

فالرسالة أعلى مرتبة من النبوة ، وهذا رأى جمهور أهل السنة (٣)

---

(١) ينظر : المفردات للراغب : ٣/١٩٥ ، ولسان العرب (نبأ) - الطبعة الأميرية بولاق ، والصحاح للجوهرى : ١/٧٤ (نبأ) ، والمصباح المنير : ٢/٥٩١ ، والمعجم الوجيز : ص ٥٩٨ .

(٢) ينظر : جوهرة التوحيد للبيجورى : ص ١٥٠ ، ومشارق أنوار العقول للإمام عبد الله عبد السلام - ١/٨٦ تح د/ عبد الرحمن عميرة - مكتبة الاستقامة - سلطنة .

(٣) هذا هو الرأى الراجح ، وقد دارت عبارات بين المتكلمين حول هذه القضية ، فمنهم من رأى وجود الفرق بين النبى والرسول ، ومنهم من رأى اتحاد المعنى بينهما وعدم التفريق والخوض فى مثل هذه الاختلافات لا يعنينا ، فنرجع إليه فى مظانه .

ينظر : العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حسن الميدانى ص ٢٦٨ ، دار العلم - دمشق ، والعقيدة الإسلامية للدكتور عطية محمد وآخرين ص ١٩٠ ، دار الفكر عمان - الأردن ، والنبوة فى العقيدة الإسلامية د/ عبد المنعم النمر ص ٣٠ وما بعدها ط الأمانة ١٩٩٦م .

وعلى هذا الرأي فالرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام وهو "النبوة".

وافترقا في أمر آخر وهو الرسالة:

فالنبي هو الذي أوحي الله إليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ، والرسول هو الذي أوحي الله إليه بشرع وأمر بتبليغه.

ومما يؤيد الانفصال بين الوصفين ما يلي:

أولاً: أن الوصف بالرسالة معتبر للوصف بالنبوة

ويشهد لذلك وصف الله تعالى لهما معاً، وفي هذا إشعار بعظم مفهومهما في الاصطلاح الشرعي. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ﴾ (١) كما يشهد لذلك أيضاً عطف أحدهما على الآخر عطف تعاير. وذلك في قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ (٢)

ثانياً: سبق الاصطفاء بالنبوة على الاصطفاء بالرسالة:

فلا يتم الاصطفاء بالرسالة إلا بعد تم اصطفاؤه بالنبوة. ويدل على ذلك عدة نصوص، منها قوله تعالى: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة في الأولين ﴾ (٣)

وقوله سبحانه في حق سيدنا محمد ﷺ: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ (٤)

---

(١) مريم / ٥٦.

(٢) الحج / ٥٢.

(٣) الواقعة / ٧.

(٤) الأحزاب / ٤٥ - ٤٦.

فهذه الآيات تشير إلى أن النبوة تكون متحدة أولاً، ثم يأتي بعدها الإرسال.

ويمكن أن نفهم من هذا أنه قد مر على النبي مدة يكون فيها مصطفى بالنبوة قبل أن يؤمر بالتبليغ فيكون في هذه المدة - بالنظر إلى واقع حاله - نبياً لا رسولاً، فإذا أمره الله بالتبليغ صار - في واقع حاله - نبياً رسولاً، وذلك كالمدة التي كانت النبي محمد ﷺ بين بدء الوحي وبين أمر الله له بالتبليغ في قوله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾ المدثر / ١، ٢.

ثالثاً: تعرض الآيات القرآنية للفصل بين اللفظين ومشتقاتها: فلفظ "الرسول" و "الرسل" و "الرسالة" يقترن بالمهام المتصلة بتبليغ الشريعة ودعوة الخلق إلى الحق. ولفظ "النبي" و "النبيين" و "النبوة" يقترن بالأصول والصفات والأحكام الخاصة بمقام النبوة وهو الاصطفاء بالوحي (١)

رابعاً: مما يدل على المغايرة ما رواه الإمام أحمد في مسنده: "أن النبي ﷺ حينما سئل عن عدد الأنبياء قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. وعن عدد الرسل قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر" (٢)

فلنت من هذا قلة عدد الرسل عن عدد الأنبياء، وعليه فلابد من وجود فرق بينهما ولو من وجه؛ لأنه يفيد أن ليس كل نبي رسول، ولكن كل رسول نبي.

---

(١) ينظر: العقيدة الإسلامية - د/ عطية محمد سالم، ص ١٩٠.

(٢) الحديث: مسند الإمام أحمد: ٥/٢٦٥، ٢٦٦.

وقيل فى الفرق بينهما غير ذلك . (١)

وقد رأت الدراسة أن النص على ما نص عليه من أدلة على وجود الفرق بين لفظي " الرسول " و " النبي " من الأهمية بمكان ؛ ذلك لأن ذلك هذا مما يقوى بيان هذه الدراسة التى حاولت الخوض فى كشف أسرار التغاير النظمى ، وسر اختصاص كل بسياقه ، إذ فى القول باتحاد اللفظين معنى ما يوهن وجيتها فى تتبع خاصية النظم وسر التعبير فى كل .

وبناء على ما سبق فإن تحديد مقام الخطاب لكلا الوصفين فى الذكر الحكيم ، ومتى يأتى كل منهما متناغياً مع السياق الوارد فيه من الأهمية بمكان ! فأقول : نبه أهل العلم إلى أن المقام إن كان خالصاً للمدح دون اشتمال على أمر أو نهى فهو موضع الذكر بوصف " الرسول " ، أما إن كان مشتملاً على ذلك فوصف "النبي " به أليق .. وقد أورد البقاعى قوله :

" .. ولكن طريقة خطابه تعالى للعباد أنه تعالى متى جرد ذكرهم للمدح من غير أمر ولا نهى ، فهو موضع ذكرهم بالأخص الأمدح من محمود صفاتهم ، ومنه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ الفتح ٢٩ . فذكره باسم الرسالة .

ومهما كان الأمر والنهى عدل فى الغالب إلى الأعم ، ومنه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ ﴾ ، وقد تبين فى غير هذا " .

---

(١) ينظر : أصول الدين للبغدادى : ص ١٥٤ ، دار الكتب العلمية – بيروت – وشرح المقاصد للتفتازانى : ٥/٥ ، والنبوات لابن تيمية ص ١٧٢ ، ط دار الفتح ، وروح المعانى للألوسى ١٥٦/١٧ ، وتفسير الفخر ٩٩/٢٣ ط دار الفكر – بيروت ، والشفا للقاضى عياض ١٦٦/١ – ط مصطفى الحلبى .

كما حاول فى ثنايا ذلك توجيه ما ورد على خلاف هذا الأساس الذى بنى عليه رأيه .. فيقول :

" وما ورد على خلاف هذا القانون فلسبب خاص استدعى العدول عن المطرد ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾

فوجه هذا أن قوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ موقعه شديد ، فعدول بذكره ﷺ باسم الرسالة ؛ لضرب من التلطف فهو من باب : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ التوبة / ٤٣ .

وفيه بعض غموض .

وأيضاً : فإنه لما قيل : " بلغ " طابق هذه ذكره بالرسالة ، فإن المبلغ رسول ، والرسول مبلغ ولا يلزم النبى أن يبلغ إلى أن يرسل ، وأما قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ ﴾ فأمره وإن كان نهياً – أوضح من الأول ؛ لأنه تسلية له وتأنيس ، وأمر بالصبر والرفق بنفسه ، فبابه راجع إلى ما يرد مدحاً مجرداً عن الطلب " اهـ . (١)

فهو هنا يوجه ما ورد على خلاف ما حدده من أساس للمقام الذى يليق بكلا الوصفين بأحد أمرين :

الأول : أن يتم حمل الوارد على باب " العتاب " على حد قوله سبحانه : " عفا الله عنك " الآية مشفوعاً ذلك بمناصرة المدلول اللغوى والشرعى للفظ الوصف الوارد فى الآية ،و ذلك فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ فقد جاء الأمر بعد النداء صراحة .

الثانى : حمل الوارد على طريقة توجيه النهى إلى غير المخاطب ، إجلالاً لقدره ، وتعظيماً لمكانته عند الله تعالى .

---

(١) نظم الدرر : ٦٩/٦ .

فقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ ظاهره توجيه النهى إلى لفظ " الذين " ؛ لأنه مرفوع على الفاعلية ، ولكنه فى الحقيقة موجه إلى النبى ﷺ ، ولكن عودل عن هذا لعظم مكانة ﷺ أن يوجه لفظه فى .

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من هذا ، وهو محل نظر ودراسة فى بحث قادم إن شاء الله تعالى .

أما الرأى الثانى : فقد ذهب إليه الزركشى – رحمه الله – فقد أشار إلى أن الخطاب بوصف " النبى " يأتى فى المقام الخاص به كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ .

وقد يعبر به مقام التشريع العام قليلاً مع قرينة إرادة العموم كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ .

أما وصف " الرسول " ففى التشريع العام : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ (١)

كما نبه بعض أهل العلم (٢) إلى أن الخطاب بالوصف الدال على الرسالة يأتى عندما يكون الأمر متعلقاً بتبليغ محمل الرسالة ، أما النداء بالنبى فهو يأتى فى الإخبار بالأنباء المهمة المتعلقة بجزيئات الرسالة كالجهاد والتشريع والأمور التى لا تعلم إلا عن طريق الوحى .

وعلى هدى ما سبق ظهر لنا أوجه الافتراق بين وصفى " الرسول " و " النبى " وأن لكل منهما سياقه المتناغم مع دلالته اللغوية والشرعية .

---

(١) البرهان : ٢/٢٤٧ .

(٢) أسرار التعبير القرآن فى سورة الأحزاب – د/ أبو موسى : ص ٤٠ ، ٤٦ .

وأجدنى أميل إلى ما قيل من أن وجه الافتراق بينهما يكمن فى أن التعبير بوصف " الرسول " يأتى عندما يتعلق الأمر بالتبليغ سواء فى ذلك تبليغ مجمل الرسالة ، أم تبليغ أمر لا يمكن كتمانه أو السكوت عليه ، وقد تم التنبيه على هذا فى مظانه .

أما وصف " النبى " فمقامه هو الإخبار بالأنباء المهمة التى لا تعلم إلا عن طريق الوحى ، والتى تتعلق بجزيئات الرسالة كالجهاد والتشريع وغيرها .

وبناء على هذا يأتى فى الشواهد الآتية بيان حقيقة الخطاب لكل شاهد يشتمل على وصف " النبى " ثم بيان مدى ملاءمة هذا الوصف لما ورد فيه ، مع الإلماح إلى بعض جزيئات الشاهد التى تخدم التوجيه اللائق به .

ومن ثم تتكامل الرؤية العامة للتوجيه الأمثل لكل شاهد ، والذى يليق بجلال النظم القرآن المجيد ، ويقنع كل ذى لب سليم فالله أسأله التوفيق والسداد – فأقول :

سياقات النداء بوصف (النبى) :

جاء النداء الإلهى لرسول الله ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى الذكر الحكيم فى ثلاثة عشر موضعاً ، تنوعت سياقاته على حسب المقام المعبر به فيه :

منها ما ورد فى سياق " التشريع " .

ومنها ما ورد فى سياق " الجهاد " .

ويمكننا الوقوف على أسرار التعبير بوصف النبوة (النبى) فى هذه السياقات من خلال الحديث فيما يلى :

أولاً : النداء بوصف (النبى) فى سياق (التشريع) :

نودى رسول الله ﷺ بوصف (النبى) فى سياق التشريع فى ثمانية مواضع ، اشتملت سورة (الأحزاب) على خمسة منها ، بينما جاء الموضع

السادس فى سورة (الممتحنة) ، والموضع السابع فى مفتتح سورة (الطلاق) والموضع الثامن فى مفتتح سورة (التحريم) .

• أما عن المواضع الواردة فى سورة (الأحزاب) ، فقد جاءت فى افتتاح أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به ﷺ وبعضها يتعلق بغيره ولا ملابسة به :

فالنداء الأول : لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربه .

والنداء الثانى : لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه .

والنداء الثالث : لافتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته فى معاملة الأمة .

والنداء الرابع : فى طالعة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه .

والنداء الخامس : فى غرض تأديبه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات .

وأما عن الموضع السادس الوارد فى سورة (الممتحنة) ، فقد جاء النداء فيه فى طالعة بيان أخذ البيعة على النساء على ألا يشركن بالله شيئاً ... إلخ

وأما عن موضعى آيتى (الطلاق) و(التحريم) فقد جاء النداء فيهما فى بيان بعض الأحكام المتعلقة بأمر الطلاق ن ونفى الحرج عن رسول الله ﷺ أن يحرم على نفسه ما أحله الله تعالى له :

• النداء بوصف " النبى " لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربه

جاء نداء رسول الله ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى سياق تحديد واجبات رسالته فى تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله فى مفتتح سورة (الأحزاب) فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ الأحزاب ١

فقد افتتحها سبحانه وتعالى بأمر نبيه ﷺ باتقائه ونهيه عن الصغو إلى الكافرين والمنافقين ، واتباعه ما يوحى إليه ؛ تنزيها لقدره عن عدة من سبق له

الامتحان ممن قدم ذكره فى سورة " السجدة " وأمراً له بالتسليم لحالله والتوكل عليه . (١)

والواضح هنا أن الأمر مقصود به الدوام والثبات ، لأن تقوى الله سبحانه حاصلة من النبى ﷺ وكذا النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين الغرض منه الدوام والثبات . (٢)

ليكون ذلك مانعاً عما نهى عنه بقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ فيما يعود بوهن فى الدين (٣) ، وقد نبه الشهاب إلى أنه لو كان الأمر كذلك تصدر الأمر بالنداء . فالظاهر أنه تخصيص بعد تعميم ؛ لاقتضاء المقام الاهتمام به ، كما يدل عليه سبب النزول .

وليس بشىء ؛ لأن التقوى صفت عما ذكر فعدم طاعته لهم أمر تحقق سابق على الأمر ، فلو قرن بالنداء أو هم خلاف المراد . فلا حاجة إلى جعله موكولاً لفهم المخاطب .

ولم يؤوله بالثبات على عدم الطاعة – كما فى الأمر ؛ لتجدده بتجدد ما طلبوه ولأن النفاق حدث بالمدينة . (٤)

ونداء النبى ﷺ بوصف النبوة دون اسمه تشريف له بفضل هذا الوصف ؛ لنبوأ مقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره . (٥)

---

(١) نظم الدرر : ٦/٦٨ .

(٢) ينظر : البيضاوى وحاشية الشهاب عليه : ٧/١٥٦ ، وروح المعانى : ١١/١٤١ ، وتفسير القاسمى : ٨/٤٧ ، وحاشية الشيخ زاده : ٦/٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(٣) ينظر : تفسير البيضاوى : ٧/١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤) حاشية الشهاب : ٧/١٥٦ ، وينظر : التحرير والتنوير : ٢١/٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٥) ينظر : الكشاف : ٣/٥١٨ ، ٥١٩ ، ط دار الريان / ثالثة ١٩٨٧م ، والدر الوجيز : ٣/٤٥ ، ٤٦ ، والتحرير والتنوير : ٢١/٢٤٩ .

فإن مواجهة العظماء بأسمائهم فى النداء لا تليق ، بخلاف الإخبار فى أن محمداً رسول الله ، فإنه يتعين إجراء اسمه العلم ؛ ليوصف بعده بالرسالة ، كقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ (٢) وتلك مقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب هذا الاسم هو رسول الله ، أو تلقين لهم بأن يسموه بذلك ويدعوه به ، فإن علم أسمائه من الإيمان ، لئلا يلتبس به . (٣)

وذكر البقاعى (٤) – رحمه الله – أن خطابه بوصف النبوة إنما جاء على هذه الطريقة ؛ لأنه أمر عقب تخويف وإنذار ، وليس الغرض من الكلام تجريد ذكره ﷺ للمدح ، والأمر إذا كان كذلك فهو موضع ذره بالوصف الأعم كما فى الآية .

أما إن جرد الذكر للمدح من غير أمر ولا نهى فهو موضع ذكره بالأخص الأمدح من محمود صفاته ، كقوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ .

وذكر أن ما ورد على خلاف ذلك فلسبب خاص استدعى العدول عن المطرد ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ وقد نبه على توجيه ذلك فى مظانه من البحث . (٥)

---

(١) الفتح : ٢٩ .
(٢) آل عمران / ١٤٤ .
(٣) التحرير والتنوير : ٢٤٩/٢١ .
(٤) نظم الدرر : ١٩/٦ ، ٧٠ .
(٥) البحث ص ١٢ – ١٤ .

أما العلامة الطيبى – رحمه الله – فقد ذكر أن النداء بالوصف فى هذه السورة قد جاء ملاطفة وملاينة للأمر بالتقوى ، والنهى عن إطاعة الكافرين والمنافقين ، وذلك على طريقة قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (١)

قال الطيبى – رحمه الله – : " والنداء هنا للاحتراس وجبر ما يوهن الأمر والنهى " . (٢)

وهذا كلام طيب مرضى ، ولكن لم خص وصف النبوة هنا دون الرسالة ؟ الجواب كما يراه أهل العلم : أننا إذا رجعنا إلى ما قيل فى المعنى اللغوى لكلمة " نبى " وأنها مأخوذة من " النبأ " الذى هو الخبر العظيم الشأن ، العارى عن الكذب ، والذى يحصل به علم أو غلبة ظن ، فقد يعين ذلك على إدراك سر إيثار كلمة " النبى " على " الرسول " فى فاتحة هذه السورة ، إذ عرف أن هذه السورة قد حفلت بأنباء مهمة ، ففيها إنباء ببطلان الظهار ، وإنباء ببطلان التبنى ، وإنباء بزواجه عليه الصلاة والسلام من زينب بنت جحش ، وإنباء بتخييره ﷺ لنسائه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله ، وإنباء بأنه لا يحل له الأزواج من بعد ، ولا أن يبدل بهن من أزواج وغير ذلك من أنباء المنافقين والمرجفين ... إلخ .

ولهذا كثر لفظ " النبى " وتردد فى هذه السورة خمس عشرة مرة كلها جاءت فى سياق إنباء بالأمور المهمة .

وهذا فن من البلاغة .. سماه ابن المعتز : " حسن الابتداء " وسماه المتأخرون "براعة المطلع"،أو "براعة الاستهلال" قال صفى الدين الحلى فى تفسير التسمية:"لأن طلوع أهلة المعانى واضحة فى استهلالها"

والأهلة جمع هلال وهو : أول أيام القمر .

---

(١) التوبة / ٤٣ .
(٢) وينظر / حاشية الشهاب : ١٥٦/٧ ، وروح المعانى : ١٤٢/١١ ، وتفسير القاسمى : ٤٧/٨ .

وكان معانى السورة تلوح أهلتها - أى بدايات معانيها - فى مطالعها . (١)

وجملة : (إن الله كان عليماً حكيماً) التى اختتمت بها الآية الكريمة بمثابة التعليل للنهى ، والمعنى : أن الله حقيق بالطاعة له دون الكافرين والمنافقين ؛ لأنه عليم حكيم ، فلا يأمر إلا بما فيه الصلاح ودخول (إن) على الجملة قائم مقام فاء التعليل ، ومغن غناءها . (٢)

ثانياً : النداء بوصف (النبى) لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترانه به من مقامه :

وأما عن نداء رسول الله ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى الصياح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه ، فقد جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ الأحزاب / ٢٨ .

حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخير أزواجه بين الدنيا وزينتها بين الله ورسوله والدار الآخرة (٣) ، وقد صرف الله سبحانه وتعالى الكلام عن مخاطبة

---

(١) ينظر : من أسرار التعبير القرآنى - دراسة تحليلية لسورة الأحزاب / د / محمد أبو موسى : ص ٤٦ ، ٤٧ ، الناشر مكتبة وهبة / ط ثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٦م

(٢) التحرير والتنوير : ٢١/٢٥١ .

(٣) ذكر ابن عطية رواية عن ابن الزبير وغيره من المفسرين : أنه لما فتحت على المسلمين أرض قريظة والنضير العوامل ، وكانت أرض التمر قبل ذلك فيأ للنبى ﷺ ، حسب أزواج رسول الله ﷺ أن الله جل اسمه من الرجال إذا وسع عليهم الرزق توسعوا فيه هم وعيالهم ، فلم يكن أزواج النبى ﷺ بحالته توسعة قبل أن يفيء الله عليه من أهل النضير ، وقبل أن يكون له الخمس من الغانم ، فلما رأين النبى ﷺ جعل للطعمة والأزواجه نفوقهم من مال الله ، ورأين وفرة ما أفاء الله عليه من المال ، حسبن أنه يوسع فى الإنفاق ، فصار بعضهن يستكثره من النفقة ، كما دل عليه قول عمر - رضى الله عنه - لابنه حفصة - رضى الله عنها - أم المؤمنين : " لا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسم منك وأحب إلى النبى ، وأسلم مما بك " ينظر : المرر الوجيز : ٤/٦٧ ، والتحرير والتنوير : ٢١/٢٦٤ .

أزواج النبى ﷺ مباشرة حتى يكون الخيار خياراً خالصاً يترك فيه الأمر لمحض إرادة المخير وفكره ، فقد يكون فى إقبال الله عليهن بالخطاب ما يجب إليهن اختيار الله ورسوله ، ولهذا قدم فى الاختيار قوله : ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ على قوله : ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ (١)

وقد ناداه الحق سبحانه وتعالى بوصف النبوة فى قوله : " يا أيها النبى " ، لأن المقام مقام إنباء لأزواجه وتبليغ بالاختيار ، وفى وصف النبوة إشارة إلى عظمة قدره ومكانته ، وأنه هو النبى المنبأ من قبل الله ، أو المنبئ عن الله ، وليس فى مراتب الشرف أفضل من هذا ، وهذه الإشارة لجلال مكانة النبى ﷺ لها أهمية فى هذا السياق ؛ لأن هذا التخيير إشارة إلى أن كل نفس رهينة بما قدمت من خير أو شر فى هذا الوجود ، فكل مأخوذ بكسب يده ، لا يغنى أحد عن أحد شيئاً ، حتى إن هذا النبى الجليل القدر العظيم المكانة عند الله ، والذى يبنى الأرض بحبر السماء لا يغنى شيئاً عن أزواجه اللاتى يخالطهن أتم مخالطة ، ويعاشرهن أدق معاشرة ، وإنما تبيض كل واحدة منهن عند الله بما قدمت يداها من عمل صالح ، وتمثل لدعوة الحق والتمسك بالدين الحنيف . (٢)

وعلى هذا فإن الصياح الآية الكريمة بنداء النبى ﷺ بـ " يا أيها النبى " نبه على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به ، وهو غرض تخيير زوجه وهو الغرض الثانى من الأغراض التى تقدم ذكرها فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ . (٣)

---

(١) من أسرار التعبير القرآنى : ص ٢٤٤ ، وينظر : التعبيرات القرآنية التى جاءت على وزن وصيغة : ص ١٥٨ .

(٢) من أسرار التعبير القرآنى : ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ (بتصرف) ، وينظر على التوالى : ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، وحاشية الشهاب ٧/١٦٧ ، والتفسير الكبير : ٢٥/٢٢٨ ، ٢٢٩ ، والمرر الوجيز ٢/٢٤٧ ، والتفسير القاسمى : ٨/٢٤٧ ، وحاشية الشيخ زاده : ٣/٢٢٩ .

(٣) التحرير والتنوير : ٢١/٢٦٥ .

ومعنى : (إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) : إن كنتن تؤثرن ما فى الحياة من الترفق على الاشتغال بالطاعات والزهد .

فالكلام على حذف مضاف يقدر صالحاً للعموم ؛ إذ لا دليل على إرادة شأن خاص من شؤون الدنيا ، وهذه نكتة تعدية فعل (تردن) إلى اسم ذات (الحياة) دون حال من شؤونها .

والعطف فى قوله : (وزينتها) على ما قبله من عطف الخاص على العام ، وفيه زيادة تنبيه على أن المضاف المحذوف عام ، كما أن الفعل (تردن) فيه إيذان باختيار شيء على غيره ، فالمعنى : إن كنتن الانغماس فى شؤون الدنيا .

كما دل عليه مقابلته بقوله : (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة) وفى التعبير بقوله (فتعالين) بمعنى : أقبلن (اسم فعل أمر) تمثيل لحال تخيير الأزواج لأخذ التمتيع وسماع التسريح بحال من يحضر إلى مكان المتكلم .

وجزم الجواب فى قوله (أمتعكن) ليكون فيه معنى الجزاء ، ليفيد حصول التمتيع بمجرد إرادة إحداهن الحياة الدنيا .

وفى تقييد السراح الذى هو الطلاق بالجميل (سراحاً جميلاً) إشارة إلى أنه طلاق دون غضب ولا كراهية ؛ لأنه طلاق مراعى فيه اجتناب تكلف الزوجة ما يشق عليها . (١)

ثالثاً : النداء بوصف " النبى " لافتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته فى معاملة الأمة .

وأما عن نداء رسول الله ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى افتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته فى معاملة الأمة فقد جاء فى قول الحق سبحانه :

---

(١) ينظر: حاشية الشهاب : ١٦٧/٧ ، والمحرر الوجيز : ٦٧/٣ ، والتحرير والتنوير : ٣١٥/٢١ ، ٣١٦ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ الأحزاب / ٤٥ ، ٤٦ .

ويعد هذا النداء هو النداء الثالث الذى اشتملت عليه سورة الأحزاب فإن الله تعالى لما أبلغه بالنداء الأول ما هو متعلق بذاته ، وبالنداء الثانى ما هو متعلق بأزواجه ، وما تخلل ذلك من التكليف والتذكير ، ناداه بأوصاف أودعها الله سبحانه فيه للتنويه بشأنه ورفعة مقداره وبين له أركان رسالته ، فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته وأحوال الأمة السابقة .

وذكر له هنا خمسة أوصاف هى : " شاهد ، ومبشر ، ونذير ، وداع إلى الله ، وسراج منير"

فهذه الأوصاف ينطوى إليها وتنطوى على مجامع الرسالة المحمدية ، فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة . (١)

فالخطاب هنا موجه إلى رائد الجماعة المؤمنة ﷺ تذكيراً له برسالته فى الأرض ، وتحديداً لمهماته ، وأنه شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع ، وبقاء ما هو صالح للبقاء منها ، ويشهد ببطلان ما ألصق بها ، وبقاء ما لا ينبغى بقاؤه من أحكامها ، ومبشر يبشر أولياء الحق ، ونذير ينذر بالدمار والهلاك حزب الباطل ، وأنه داع يدعو إلى الله ، وأنه سراج منير يهدى الطريق إليه سبحانه . (٢)

وقد ألمح الفخر إلى حسن الترتيب فى هذه الأوصاف بقوله : " وفيه ترتيب حسن من حيث إن النبى ﷺ أرسل شاهداً بقوله : " لا إله إلا الله " ويرغب فى ذلك بالبشارة ، فإن لم يكف ذلك يرهب بالإنذار ، ثم لا يكتفى بقولهم " لا إله إلا الله " بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى :

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٥٢/٢٢ .
(٢) من أسرار التعبير : ص ٣٦٣ .

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ سِرَاجاً مُنِيراً ﴾ أى : منيراً على ما يقول مظهراً له بأوضح البراهين " ا هـ [2] ولا شك أن ذكر هذه الأوصاف يتناغى مع التعظيم المستفاد من النداء بالوصف فى قوله " يا أيها النبى " والله تعالى أعلم .

ومعنى الشاهد فى الآية : المخبر ن حجة المدعى الحق ، ودفع دعوى المبطل .

فالرسول ﷺ شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها ، ويشهد ببطلان ما ألصق بها ، وبنسخ ما لا ينبغى بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم فى القرآن والسنة . قال تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ فسيدنا محمد ﷺ شاهد أيضاً على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة فى حياته ، وشاهد عليهم فى عرصات القيامة ، قال تعالى : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾

فهو ﷺ شاهد على المستجيبين لدعوته ، وعلى المعرضين عنها ، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدل .

وعلى هذا كان وصف الشاهد هنا أشمل هذه الأوصاف المذكورة فى الآية للرسول ﷺ بوصف كونه رسولاً لهذه الأمة ، ووصف كونه خاتماً للشرائع ومتمماً لمراد الله تعالى من بعثة الرسل .

وفى وصفه ﷺ بقوله (مبشراً) إلماح إلى ما تضمنه هذا الوصف من الدلالة على ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من الدعاء إلى الخير من الأوامر ؛ إذ المبشر هو : المخبر بالبشرى والبشارة . وهى الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية .

---

(١) النحل / ١٢٥ .

(٢) التفسير الكبير : ٢٥/٢١٧ ، ٢١٨ .

وفى تقديم (البشارة) على (النذارة) إيماء إلى أن النبى ﷺ قد غلب عليه التبشير ؛ لأنه رحمة للعالمين ؛ ولكثرة عدد المؤمنين فى أمته .

وجىء فى جانب النذارة بصيغة (فعيل) دون اسم فاعل ؛ لإرادة الاسم ، فإن النذير فى كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم .

ومن الأمثال : " أنا النذير العريان " أى : الآتى بخبر حلول العدو بديار قوم .

فالوصف " بنذير " تمثيل بحال نذير القوم ، كما قال : (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) ؛ للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم ، وكأن المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع .

وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير ؛ ولذلك كثر فى القرآن الوصف بالنذير وقل الوصف بـ (منذر) .

وفى الوصف بقوله : (وداعياً إلى الله بإذنه) إشارة إلى شمول هذا الوصف أصول الاعتقاد فى شريعة الإسلام مما يتعلق بصفات الله ؛ لأن دعوة الله دعوة إلى معرفته وما يتعلق بصفات الدعاة إليه من الأنبياء والرسل والكتب المنزلة عليهم .

وفى التقييد بقوله (بإذنه) إفادة إلى أن الله أرسله ﷺ داعياً إليه ويسر له الدعاء إليه مع ثقل أمر هذا الدعاء وعظم خطره ، وهو ما كان استشعره النبى ﷺ فى مبدأ الوحى من الخشية إلى أن أنزل عليه : (يا أيها المدثر * قم فأنذر) .

فهذا إذن خاص وهو الإذن بعد الإحجام المقتضى للتيسير ، فأطلق اسم الإذن على التيسير على وجه المجاز المرسل .

والتعبير بقوله : (وسراجاً منيراً) تشبيه بليغ بطريق الخالية وهو طريق جميل .

أى : أرسلناك كالسراج المنير فى الهداية الواضحة التى لا لبس فيها والتى لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها ، وأوقفت الناس على دخلائلها ، كما يضىء السراج الوقاد ظلمة المكان .

وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبى ﷺ من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله فى الأديان من مسالك للتبديل والتحريف ، فشمل ما فى الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه فى الدين والعلم ، فإن العلم يشبه بالنور ، فناسبه السراج المنير .

وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التى وصف بها آنفاً فهو كالتذلكة وكالتذييل .

ووصف السراج بـ (منيراً) مع أن الإنارة من لوازم السراج ، هو كوصف الشىء بالوصف المشتق من لفظه فى قوله : " شعر شاعر " و " ليل أليل " ، لإفادة قوة معنى الاسم فى الموصوف به الخاص ، فإن هدى النبى ﷺ هو أوضح الهدى ، وإرشاده أبلغ إرشاد . (١)

رابعاً : النداء بوصف (النبى) فى طالعة غرض أحكام تزوجه ﷺ وسيرته مع نسائه :

وأما عن ندائه ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى طالعة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه ، فقد جاء فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ... الآية ﴾ الأحزاب / ٥٠ .

(١) ينظر: نظم الدرر : ١١٥/٦ ، والبيضاوى وحاشية الشهاب عليه : ١٧٧/٧ ، وتفسير القاسمى : ٥٩/٨ ، وحاشية زاده : ٦٤٥/٦ ، والمحرر الوجيز ٨٢/١٣ ، ٨٣ ، والتحرير والتنوير ٩٢/٢٢ - ٩٥ .

حيث تسوق هذه الآية له ﷺ من فضل الله تعالى ، والتوسعة عليه ﷺ فى أمر النساء ، وكان ﷺ يرتبط زواجه فى كل حال بموقف من مواقف البر بامرأة استشهد زوجها فى سبيل الله تعالى ، أو امرأة أسلمت وأخلصت بعد ما رأت ما نزل بأهلها على يد المسلمين ، كما هو معروف فى قصص زواجه .

جاءت هذه الآية لتستثنى رسول الله ﷺ من التحديد الذى ذكرته سورة النساء فى قوله تعالى: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (١) وقد أرسل صحابة رسول الله ﷺ ما زاد عن هذا العدد من بين نسائهم ، وقد من الله على أمهات المؤمنين ، وأكرم رسوله ﷺ باستثنائه من هذه القاعدة ، فلم يقض الله عليهن بمفارقة بيت النبوة بعدما شرفهن بذلك . (٢)

ففى هذه الآية بيان بما أحله الله تعالى لنبيه ﷺ من أزواجه اللاتى أعطاهن أجورهن وإن كن أكثر من أربع ، كما أنه خصه بقبول التى وهب نفسها له دون بقية أصحابه .

ولا شك أن هذه الأنباء فيها شرف وتعظيم ورفع لمنزلة النبى ﷺ وهذا يتلاقى مع ندائه بالوصف .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ ولم يقل : " لك " ، لأن هذا التشريع خاص به بوصفه نبياً ، فالنبوة أساس فى هذا الحل ، ونجد ذلك فى هذا البدء الذى بدأت بها الآيات : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ ، فالنداء بالنبى مزيد اختصاص فى هذه الأحكام . (٣)

ولما ذكر وصف النبوة ، لأنه مدار الإكرام من الخالق والمحبة من الخلائق تشريفاً له به ، وتعليقاً للحكم بالوصف ، لأنه قال : لك " كان ربما وقع فى

(١) النساء / ٣ .
(٢) من أسرار التعبير / ص ٣٦٣ .
(٣) من أسرار التعبير : ص ٣٧٥ ، وينظر : التعبيرات القرآنية التى جاءت على وتيرة واحدة : ص ١٥٨

بعض الأوهام أنه غير خاص به ﷺ كرره بياناً لمزيد شرفه فى سياق رافع له ربما يوهم من أنه يجب عليه القول فقال : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ﴾ أى : الذى أعلينا قدره بما اختصصناه به من الإنباء بالأمور العظيمة من عالم الغيب والشهادة .[1]

وفى إظهار الوصف فى مقام الإضمار فى قوله : ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ما يدل على التفخيم والتكريم لشخصه ﷺ إذ المعنى : " إن وهبت نفسها لك وأردت أن تنكحها " ذلك التكريم الذى جعله يتميز علينا بالفضائل والكرامة ، فحظه فيها أكثر من غيره بوصفه نبياً اختص بأحكام خاصة له دون غيره .

ولعل فى التعليل الختامى للآية : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ ما يقرر مبدأ التعليم والامتنان لما شرعه الله تعالى فى حق نبيه ﷺ .[2]

وهذا بيان سر اختصاص الوصف بالنبوة فى الآية الكريمة ، الذى هو مبدأ القرب ومقصوده ، ومنبع الكمال ومداره ، والله تعالى أعلم .

خامساً النداء بوصف (النبى) فى فرض تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات :

وأما عن ندائه ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى سياق تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات ، فقد جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ... الآية ﴾ الأحزاب / ٥٩ .

(١) ينظر : نظم الدرر : ١٢٠/٦ .

(٢) ينظر : حاشية الشهاب : ١٧٨/٧ ، ١٧٩ ، والمحرر الوجيز : ٨٤/١٣ ، ٨٥ ، والقاسمى : ٩٤/٨ ، ٩٥ ، وحاشية زاده : ٦٤٩/٦ ، والتحرير والتنوير : ٦٩/٢٢ ، ٧١ .

والخطاب يبدو فى سياق الآية أمراً مهماً ، فالله - سبحانه وتعالى - يدعو نبيه لوجه الأمر فى حسم (يا أيها النبى قل) ونرى فى هذا الأمر ما يغرى المرأة المسلمة بالامتثال ؛ لأنها تكون فى صحبة أزواجه وبناته ، وهذا غاية ما يمكن أن يكون من التكريم .[1]

ففى ذكره ﷺ بالوصف (يا أيها النبى) الذى هو منبع المعرفة والحكمة ، لأن السياق حكمة يذب بها عن الحريم ؛ لئلا يشتغل فكره ﷺ بما يحصل لمن من الأذى عن تلقى شىء من الواردات الربانية .[2]

وفى الابتداء بأزواجه ﷺ وبناته لأنهن أكمل النساء ، فذكرهن من ذكر أفراد العام للاهتمام به .

والإضافة فى قوله (ونساء المؤمنين) على معنى (من) أى النساء من المؤمنين فليس المراد بالنساء هنا أزواج المؤمنين بل المراد الإناث المؤمنات .

وقوله : (يدنين عليهن من جلابيبهن) كناية عن اللبس والوضع ، أى : يضعن عليهن جلابيبهن .

وفى التذييل بقوله : (وكان غفوراً رحيماً) صفح عما سبق من أذى الحرائر قبل تنبيه الناس إلى هذا الأدب الإسلامى . فقد كان لبس الجلباب من شعار من الحرائر ، فكانت الإماء لا يلبسن الجلابيب ، وكانت الحرائر يلبسن الجلابيب عند الخروج للزيارات ونحوها ، فكن لا يلبسنها فى الليل وعند الخروج إلى المتاصع ، وما كن يخرجن إليها إلا ليلاً ، فأمرن بلبس الجلابيب فى كل خروج ليعرف أنهن حرائر ، فلا يتعرض إليهن شباب الدعار بحسبهن إماء ، أو يتعرض إليهن المنافقون استخفافاً بهن بالأقوال التى تخجلهن ، فيتأذين من

(١) من أسرار التعبير : ص ٣٩٢ ، وينظر . القاسمى : ١١٢/٨ ، ١١٣ ، وحاشية زاده : ٦٦٢/٦ ، والتعبيرات القرآنية التى جاءت على وتيرة واحدة : ص ١٥٩ .

(٢) نظم الدرر : ١٣٥/٦ .

ذلك ، وربما يسبين الذين يؤذين فيحصل أذى من الجانبين ، فهذا من سد الذريعة .

وعليه فالتأويل هنا يقتضى انتهاء الغرض . (١)

سادساً : النداء بوصف (النبى) فى طالعة بيان أخذ البيعة على النساء :

وأما عن ندائه ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى طالعة بيان أخذه ﷺ البيعة على النساء ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ... إلخ فقد جاء فى آية الممتحنة فى قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ ... ؟؟الآية ﴾ الممتحنة / ١٢

حيث أباحت هذه الآية لرسول الله ﷺ أن يبايع المؤمنات على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين رسول الله ﷺ فى معروف ، فإذا فعلن هذه الشروط جميعاً فبايعهن واستغفر لهن الله ، وفى هذا دلالة على أن الله قد تاب عليهن وعفا عنهن ؛ لأن استغفار النبى ﷺ لهن يستوجب المغفرة من الله تعالى .

روى البخارى ومسلم (٢) عن عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . (٣) فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ " قد بايعتك " ولهذا جاء التعبير

---

(١) ينظر: حاشية الشهاب : ١٨٥/٧ ، والمحرر الوجيز : ٩٩/١٣ ، ١٠٠ ، والتحرير والتنوير ١٠٦/٢٢ ، ١٠٧ .

(٢) صحيح البخارى ١٥٣٣/٤ ، رقم ٣٩٤٦ ، باب هجرة النبى ، وصحيح مسلم : باب كيفية بيعة النساء رقم ١٨٦٦ ، كتاب الإمارة ١٤٨٩/٣ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير ٥٠٧/١٥ ، ٥٠٨ ، والدر المصون : ٣٠٨/٦ ، والتحرير والتنوير ١٦٤/٢٨ ، ١٦٥ .

بوصف النبوة المقتضى للعلم ، ودل على تحقق كون ما يخبر به من مجيئهن بأداة التحقيق علماً من أعلام النبوة فقال : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ... الآية ﴾ . (١)

وعليه ففى التعبير بـ (إذا) بعد الخطاب الشريف دون (إن) دلالة على تحقق كون ما يخبر به من مجيئهن بأداة التحقيق علماً من أعلام النبوة

قوله : (يبايعنك) خبر مراد به الأمر أى . فليبايعنك ، فالمنشأ خبر ومعناه إنشاء .

وقد شملت الآية الكريمة النهى عن خصال فى الجاهلية جاء فى مقدمتها الإشراك بالله الذى عم سكان الجزيرة العربية آنذاك رجالاً ونساءً .

ثم جاء بعده (السرقة) ؛ لأنها كانت فيهن أكثر منها فى الرجال ، فقد قال الأعرابى لما ولدت زوجه بنتاً : " والله ما هى بنعم الولد برها بكاء ، ونصرها سرقة .

وفى إسناد القتل إلى النساء وإن كان بضعه يفعله الرجال ؛ لأنهن كن يرضين به أو يسكتن عليه .

وقوله : (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) من الكلام الجامع لمعان كثيرة باختلاف محامله من حقيقة ، ومجاز ، وكناية :

فالبهتان حقيقته : الإخبار بالكذب وهو مصدر . ويطلق المصدر على اسم المفعول كالخلق بمعنى المخلوق .

وحقيقته بين الأيدى والأرجل : أن يكون الكذب حاصلاً فى مكان بتوسط الأيدى والأرجل، فإن البهتان على حقيقته وهو الخبر الكاذب ، كان افتراؤه بين أيديهن وأرجلهن أنه كذب مواجهة فى وجه المكذوب عليه ، كقولها : " يا فلانة زنيت مع فلان " أو " سرقت حلى فلانة " ؛ لبهتها فى ملأ من الناس .

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٥٦٦/٧ .

وإن كان البهتان بمعنى " المكذوب " كان معنى افتراته بين أيديهن وأرجلهن كناية عن ادعاء الحمل بأن تشرب ما ينفخ بطنها ، فتوهم زوجها أن حامل ، ثم تظهر الطلق ، وتأتي بولد تلتقطه وتنسبه إلى زوجها ؛ لئلا يطلقها ، أو لئلا يرثه عصبته ، فهي تعظم وهو بين يديها ، ثم إذا وصل إبان إظهار الطلق وضعت الطفل بين رجليها وتحدثت وتحدث الناس بذلك فهو مبهوت عليه ، فالافتراء هو ادعاؤها ذلك تأكيداً لمعنى البهتان .

وإن كان " البهتان " مستعاراً للباطل الشبيه بالخبر البهتان ، كان (بين أيديهن وأرجلهن) محتملاً للكناية عن تمكن المرأة نفسها من غير زوجها بقبلها أو بجسها ، فذلك بين يديها ، أو يزنى بيديها، أو يزنى بها ، وذلك بين أرجلها .

وفى التعبير بقوله (ولا يعصينك فى معروف) تقييد بالجار والمجرور (فى معروف) تعميماً للنهى ؛ والتقييد به إما لمجرد الكشف ، فإن النبى ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف .

وإما لقصد التوسعة عليهن فى أمر لا يتعلق بالدين .

وفى التعبير فى قوله (فبايعهن) إشارة إلى سرعة القبول للمبايعة عند تحقق شروطها ، ولما كانت المبايعة من جانبين صيغت لها صيغة المفاعلة فى هذا الفعل .

وفى الوصل بقوله (واستغفر لهن الله) إشارة إلى ترتب الاستغفار على قبول المبايعة ، وفى حذف مفعوله هنا إشارة إلى عمومه ، والمعنى : ما فرط منهن فى الجاهلية مما خص بالنهى فى شروط البيعة وغير ذلك .

وفى التأكيد الوارد لتذييل الآية (إن الله غفور رحيم) ما يدل عليه سعة رحمة الله تعالى وشمول مغفرته لكل من تاب إليه وأناب ؟ (١)

---

(١) ينظر : الكشاف : ٥٢٠/٤ ، والمدارك وحاشية الشهاب عليه ١٩٠/٨ ، والتحرير والتنوير : ١٦٤/٢٨ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

سابعاً : النداء بوصف (النبى) فى طالعة بيان بعض أحكام الطلاق .

وأما عن نداله ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى طالعة بيان بعض الأحكام المتعلقة بالطلاق فقد جاء فى فاتحة سورة الطلاق فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ... الآية ﴾ الطلاق / ١ .

حيث بدأت الآية بتخصيصه ﷺ بالنداء ، وعم بالخطاب ؛ لأن النبى ﷺ إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : " يا فلان افعلوا كيت وكيت " ؛ إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه ، وأنه مدرة قومه ولسانهم ، والذى يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه ، فكان هو وحده فى حكم كلهم ، وسادا مسد جميعهم . (١)

كذلك فإن فى البدء بندائه ﷺ وتوجيه الحكم إلى جميع المسلمين ما يدل على أهمية الأمر وأنه أمر ذو بال .. يقول صاحب الظلال : " يوجه الخطاب إلى النبى ﷺ " يا أيها النبى " ، ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه ﷺ : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ، فيوحى هذا النسق من التعبير بما وراءه ، وهو إثارة الاهتمام ، وتصوير الجدية فهو أمر ذو بال ينادى الله نبيه بشخصه ليلقى إليه فيه بأمره كيما يبلغه لمن ورائه " أ هـ (٢)

وفى توجيه الخطاب له ﷺ بوصف النبوة دلالة على رفعة قدره ، وعلو مرتبته ؛ إذ النبوة هى سبب التلقى لغرائب العلوم ورغائب الحكم والتبرم ، كما يدل هذا أيضاً على عظمة الأحكام الواردة فى هذه السورة (٣)

---

(١) الكشاف : ٥٥٢/٤ ، وينظر : البيضاوى والشهاب عليه : ٢٠٤/٨ ، والبحر المحيط لأبى حيان : ٢٨٠/٨ ، ٢٨١ ، ط دار الفكر / ثانية ١٩٨٣م ، والتفسير الكبير : ٥٦٧/١٥ ، وروح المعانى : ٣٢٥/١٤ ، والدر المصون : ٣٢٩/٦ .

(٢) الظلال : ٣٥٩٨/٦ ، ٣٥٩٩ .

(٣) ينظر : نظم الدرر : ٢٣/٨ .

وهذا بانت الصلة بين ندائه ﷺ بوصف النبوة ، وعلو مرتبته كما نبه إليه أهل العلم . (١)

ويذكر الشيخ الطاهر - رحمه الله - رأياً لتوجيه النداء بالوصف وبيان الصلة بينه وبين ما يذكر بعده من أحكام خاصة أو عامة ، ما يصلح لأن يكون قاعدة عامة يمكن الاعتماد عليها فى توجيه الشواهد المماثلة فى الذكر الحكيم فيقول :

" توجيه الخطاب إلى النبى ﷺ أسلوب من أساليب آيات التشريع المهم به فلا يقتضى ذلك تخصيص ما يذكره بعده (النبى) مثل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ ، لأن النبى ﷺ الذى يتولى تنفيذ الشريعة فى أمته وتبيين أحوالها .

فإن كان التشريع الوارد يشمله ويشمل الأمة جاء الخطاب مشتملاً على ما يفيد ذلك مثل صيغة الجمع فى قوله هنا : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ . وإذا كان التشريع خاصاً بـ " الرسول " جاء بما يقتضى ذلك نحو : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ .

قال أبو بكر بن العربى(٢) : " وهذا هو قولهم إن الخطاب له وحده لفظاً ، والمعنى له وللمؤمنين ، وإذا أراد الله الخطاب للمؤمنين لاطفه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ اهـ . (٣)

---

(١) ينظر : حاشية الشهاب : ٢٠٤/٨ ، وروح المعانى : ٣٢٥/١٤ ، والبحر المحيط : ٢٨٠/٨ ، ٢٨١ ، والفخر : ٦٧/١٥ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى الإشبيلى المالكى ، أبو بكر بن العربى قاضى ، من حفاظ الحديث ، ولد فى إشبيلية ، ورحل إلى المشرق وبرع فى الأدب ، وبلغ رتبة الاجتهاد فى علوم الدين ، وصنف كتباً فى الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، توفى فى إشبيلية ومات بقرب فاس ، ودفن بها .
من كتبه : (العواصم فى القواصم ط (جزآن) وعارضة الأحوذى فى شرح الترمذى ط ، وأحكام القرآن ط مجلدان ، وغيرها .
ينظر : الأعلام للزركلى : ٢٣٠/٦ ، دار العلم للملايين - بيروت مصورة ١٩٨٤م .

(٣) أحكام القرآن لأبى بكر بن محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ١٨٢٤/٤ ، ط دار الفكر ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

فالأحكام المذكورة فى هذه السورة عامة للمسلمين ، فضمير الجمع فى قوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ، وما بعده من الضمائر مثله مراد بما هو وأته ، وتوجيه الخطاب إليه ﷺ ؛ لأنه المبلغ للناس ، وإمام أمته ، وقدوتهم ، والمنفذ لأحكام الله تعالى فيهم فيما بينهم من المعاملات فالتقدير : " إذا طلقتم أيها المسلمون " اهـ . (١)

وقيل : إنه ما خاطبه عليه الصلاة والسلام بالنداء صرف سبحانه الخطاب عنه لأمته ؛ تكريماً له ﷺ لما فى الطلاق من الكراهة ، فلم يخاطب به تعظيماً .. وقيل غير ذلك . (٢)

وفى التعبير بقوله (طلقتم) تنزيل للمشارف للفعل منزلة الشارع فيه ؛ إذ المعنى : إذا أردتم تطليقهن " .

أو إنه لا حاجة إلى هذا بل هو من تعليق الخاص بالعام وهو أبلغ فى الدلالة على اللزوم كما يقال : : إن ضربت زيداً فاضربه ضرباً مبرحاً " ؛ لأن المعنى : إن يصدر منك ضرب فليكن ضربك شديداً ، وهو أحسن من تأويله بالإرادة ، كما نبه على هذا أهل العلم . (٣)

وفى تكرير الفعل (فطلقوهن) لمزيد الاهتمام به ، فلم يقل : " إذا طلقتم النساء فليطهرن " .

واللام فى قوله (لعدتهن) لام التوقيت وهى بمعنى (عند) مثل : كتب ليوم كذا من شهر كذا"

ولما كان مدخولها هنا غير زمان ، علم أن المراد الوقت المضاف إلى عدتهن أى : وقت الطهر.

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٩٤/٢٨ .

(٢) ينظر : روح المعانى : ٣٢٥/١٤ ، ٣٢٦ .

(٣) ينظر : المرجع نفسه : ٣٢٥/١٤ .

ومعنى التركيب : أن عدة النساء جعلت وقتاً لإيقاع طلاقهن ، فكنى بالعدة عن الطهر ؛ لأن المطلقة تعتد بالأطهار .

وفائدة ذلك أن يكون إيماءً إلى حكمة هذا التشريع ، وهي أن يكون الطلاق عند ابتداء العدة ، وإنما تبتدأ العدة بأول طهر من أطهار ثلاثة لدفع المضرة عن المطلقة بإطالة انتظار تزويجها ؛ لأن ما بين حيضها إذا طلقت فيه وبين طهرها أيام غير محسوبة في عدتها ، فكان أكثر المطلقين يقصدون بذلك إطالة مدة العدة ليوسعوا على أنفسهم زمن الارتياء للمراجعة قبل أن بين منهم . (١)

تامناً " النداء بوصف (النبي) في بيان نفي الحرج عن رسول الله ﷺ أن يحرم على نفسه ما أحله الله له :

وأما عن ندائه ﷺ في بيان نفي الحرج عن رسول الله ﷺ أن يحرم على نفسه ما أحل الله له .. فقد جاء في مفتتح سورة التحريم في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ التحريم / ١ .

حيث افتتح السورة الكريمة بخطابه ﷺ بالنداء ؛ للتنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبي ﷺ والأمة ؛ ولأن سبب النزول كان من علائقه . (٢)

كما أن ندائه ﷺ بوصف النبوة فيها ما يدل على حسن التلطف به ﷺ ، والتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ، (٣) ، وفيه من التعظيم لقدره ﷺ وبيان فضله ما فيه . (٤)

---

(١) ينظر : البحر المحيط : ٨/٢٨٠ ، ٢٨١ ، والفخر الرازي : مج ١٥/٥٦٧ ، ٥٦٨ ، والتحرير والتنوير : ٢٨/٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٨/٢٤٦ .

(٣) روح المعاني : ١٤/٣٤٢ .

(٤) ينظر : الشهاب : ٨/٢١٠ ، والبحر المحيط : ٨/٢٨٨ ، ٢٨٩ ، والفخر : ١٥/٥٩٧ ، والدر المنثور : ٦/٣٣٤ ، ٣٣٥ .

يقول البقاعي - رحمه الله - في بيان وجه الصلة بين نداله ﷺ بالوصف وعلو مرتبته : " لما ختم - سبحانه - " الطلاق " بإحاطة علمه وتول أمره بين الخلائق في تدبيره ، دل عليه أول هذه - يعني سورة التحريم - بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين نحير خلقه ، وبين نسائه اللاتي من خير النساء ، واجتهد كل في إخفاء ما تعلق منه ، فأظهره الله سبحانه-حتماً لأزواج نبيه ﷺ في صورة عقابه ؛ لأنه أبلغ رفقاً لطلب رضاهم ، وأخرى رغبة في هداهم ؛ لأنه ﷺ بالغ في تهذيب أخلاقه مع ما طهره الله به من تزاهتها عن كل دنس حتى ضيق عليها بالامتناع عن بعض ما أبيح له حفظاً لخاطر الغير ، فقال تعالى منادياً له بأداة البعد ، وهو أقرب أهل الحضرة مع أنها معدة لما يكون ذا خطب جليل ، ومعنى جسيم جليل ، وفيها إيماء إلى تنبيه الغير وإسماعه إرادة لتأديبه وتزكيته وتهذيبه .

(يا أيها النبي) مخاطباً بالوصف الذي يعلم بالعصمة ، ويلائمه الملاءمة خلو البال وسرور القلب وانشراح الصدر ؛ لأنه للتلقي عن الله تعالى فيحث كل سامع على البعد عن كل ما يشوش عليه ﷺ أدنى تشويش " اهـ . (١)

والاستفهام في قوله (لم تحرم) مستعمل في معنى النفي أي : لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك .

ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاماً بيمين أو بدون يمين ، أراد الامتناع منه في المستقبل قاصداً بذلك تطمين أزواجه اللاتي غار لأن علي لفرط غيرتهن .

أي : ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن ، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام في بعض الأيام .

---

(١) نظم الدرر : ٨/٤٣ .

وفعل (تحرم) مستعمل فى معنى : تجعل ما أحل لك حراماً أى : تحرمه على نفسك ، وصيغة المضارعة فيه ؛ لأنه أوقع تحريماً متجدداً .

وفى الإتيان بالموصول فى قوله (ما أحل الله لك) لما فى الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم هو أن ما أحله الله لعبده ينبغى له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض ؛ لأن تناوله شكر لله واعتراف بنعمته والحاجة إليه .

وفى قوله : (تبتغى مراضاة أزواجك) عذر للنبى ﷺ فيما فعله من أنه أراد به خيراً وهو جلب رضا الأزواج ؛ لأنه أعون على معاشرته .

مع الإشعار بأن مثل هذه المرضاة لا يعبأ بها ؛ لأن الغيرة تنشأ عن مجرد معاكسة بعضهن ، وذلك مما يخل به حسن المعاشرة بينهن .

فأنبأه الله أن هذا الاجتهاد معارض بأن تحريم ما أحل الله له يفضى إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه ، وأن ذلك ينبغى إبطاله فى سيرة الأمة .

وفى التذييل بجملة (إن الله غفور رحيم) استئناس للنبى ﷺ من وحشة هذا الملام . أى : والله غفور رحيم لك . (١)

ثانياً : النداء بوصف (النبى) فى سياق الجهاد :

جاء نداء رسول الله ﷺ بوصف النبوة (النبى) فى الذكر الحكيم فى سياق الجهاد فى خمسة مواضع : اشتملت سورة (الأنفال) على ثلاثة منها ، بينما جاء الموضعان الآخران : بلفظ متحد فى سورتى " التوبة " و " التحريم " :

(١) ينظر : تفسير الفخر الرازى : ٥٩٨/١٥ ، وروح المعانى : ٣٤٢/١٤ ، ٣٤٣ ، والشهاب : ٢١٠/٨ ، ٢١١ ، والتحرير والتنوير : ٣٤٦/٢٨ ، ٣٤٧ .

فالنداء الأول : جاء فى طالعة بيان كفاية الله تعالى لرسول الله ﷺ فى جميع أموره أو فيما بينه وبين الكفرة .

والنداء الثانى : جاء فى طالعة أمر إلهى لرسوله ﷺ بالتحريض على قتال الكفار .

والنداء الثالث : جاء فى طالعة بيان ما يتعلق بحال سراتر بعض الأسرى المشركين .

والنداء الرابع والخامس : جاءا فى طالعة الأمر بجهاد الكفار والمنافقين ، وتغليظ القول لهم .

= أما عن المواضع الواردة فى سورة " الأنفال " فإن المتدبر لها يجد أنها جميعاً قد جاء فيها الإخبار بأشياء مهمة تتعلق بجزئيات الرسالة ، فقد جاءت المرة الأولى لتخبره ﷺ بأن الله تعالى حسبه وكافيه ؛ ولذا أمره سبحانه بعد ذلك بالتحريض على القتال ؛ لأن الله تعالى مادام حسبه فلا يهتم بشىء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ الأنفال / ٦٤ ، ٦٥

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ إلخ استئناف ابتدائى على ما قاله أهل العلم بالإقبال على خطاب الرسول ﷺ بأوامر وتعاليم عظيمة ، مهد لقبولها وتسهيلها بما مضى من التذكير بعجيب صنع الله تعالى والامتنان بعنايته برسوله ﷺ والمؤمنين ، وإظهار أن النجاح والخير فى طاعته وطاعة الله سبحانه وأن تخصيص النبى ﷺ بالكفاية من مولاه إنما كانت لتشريف مقامه بأن الله تعالى يكفى الأمة لأجله(١)

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٦٥/١٠ .

يقول الآلوسى - رحمه الله - : " وإيراده - عليه الصلاة والسلام - بعنوان النبوة للإشعار بعلية الحكم ، كأنه قيل : " يا أيها النبى حسبك الله أى : كافيك فى جميع أمورك ، أو فيما بينك وبين الكفرة من الحروب لنبوتك " . (١)

ولهذا فإن تصدير الجملة بحرفى النداء والتنبيه للنداء على الاعتناء بمضمونها (٢) تكرير الخطاب بـ " يا أيها النبى " للدلالة على الاعتناء بشأن المأمور به :

يقول الشيخ الطاهر - رحمه الله - : " أعيد نداء النبى ﷺ للتنويه بشأن الكلام الوارد بعد النداء وهذا الكلام فى معنى المقصد بالنسبة للجملة التى قبله ، لأنه لما تكفل الله له الكفاية ، وعطف المؤمنين فى إسناد الكفاية إليهم ، احتيج إلى بيان كيفية كفايتهم ، وتلك هى الكفاية بالذب عن الحوزة وقتل أعداء الله " . (٣)

ولذا يمكن القول بأن التعبير بوصف النبوة فى الآيتين إنما جىء به ؛ لأن السياق يتطلبه ؛ ذلك لأن المقام مقام إخبار بأمور غيبية ، وهى تحقق النصر على الأعداء على الرغم من قلة عددهم وعتادهم فجىء بهذا الوصف (النبى) الذى معناه الرفعة والاطلاع من جهة الله تعالى على ما لا يعلمه العباد .

---

(١) روح المعانى : ٣٠/١٠ ، وينظر: الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى : ٤٣٤/٣ ، ٤٣٥ ، تح / على محمد معوض ، دار الكتب العلمية - بيروت - ط / أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، وبلوغ الأمانى فى تفسير سورة الأنفال - د/ محمد كامل مهران : ص ط الأمانة / أولى .

(٢) روح المعانى للآلوسى : ٣٠/١٠ ، وينظر : الدر المصون : ٤٣٤/٣ .

(٣) التحرير والتنوير : ٦٦/١٠ ، وينظر: الشهاب : ٢٨٩/٤ ، ٢٩٠ ، وروح المعانى : ٢٢٦/٥ ، ٢٢٧

وفى تكرير الوصف فى الآية الثانية مباغاة لما قبله ، لتأكيد على وعد قدره ﷻ ، وأن الجهة التى يتلقى منها الوحى إنما هى الذات العلية ، وفى هذا تطمين لقلوب أتباعه ، حتى يشتد وثوقهم به ﷻ ؛ لئلا يستقلوا أنفسهم بالنسبة لكثرة أعدائهم . (١)

وفى عطف (المؤمنين) على اسم الجلالة فى الآية الأولى ، تنويه بشأن كفاية الله للنبى ﷺ مع أن الكفاية مختلفة ، وهذا من عموم المشترك لا من إطلاق المشترك على معنيين ، فهو كقوله (إن الله وملائكته يصلون على النبى) . (٢)

وفى التعبير بالفعل (حرض) فى الآية الثانية الدال على حث الإنسان على شىء حتى يعلم منه أنه حارض أى : مقارب للهلاك ، مبالغة فى الحث على هذا الفعل وطلبه ، بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه ، كأنه فى الأصل إزالة الحرض . نحو : " قذيته " أزلت عنه القذى .

ويقال : أحرضته : إذا أفسدته . نحو : أقذيته إذا جعلت فيه القذى . فالمعنى هنا : يا أيها النبى بالغ فى حث المؤمنين على قتال الكفار .

ويجوز أن يكون من تحريض الشخص وهو أن يسميه حرضاً ويقال له : ما أراك إلا حرضاً فى هذا الأمر ومحرضاً فيه . فالمعنى سمهم حرضاً وهو من باب التهييج والإطراب ، والمعنى الأول هو الظاهر . (٣)

وفى ذكر قوله (إن يكن منكم عشرون صابرون) تفصيل بعد إجمال دل عليه عموم الجنس المدلول عليه بتعريف (القتال) المقتضى عموم الأحوال باعتبار المقاتلين - بفتح التاء :

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٢٢٨/٣ (بتصرف) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٦٥/١٠ .

(٣) ينظر : روح المعانى للآلوسى : ٢٢٦/٥ ، ٢٢٧ .

وفصلت هذه الجملة عما قبلها ؛ لأنها لما جعلت بياناً لإجمال كانت بمنزلة الاستئناف البياني ؛ لأن الإجمال من شأنه أن يثير سؤال سائل عما يعمل إذا كان عدد العدو كثيراً .

فقد صار المعنى : حرض المؤمنين على القتال بهذه الكيفية .

وفي التعبير بقوله (صابرون) تقييد للتحريض أي : حرض المؤمنين الصابرين الذين لا يتزلزلون وفي هذا إيماء إلى توخي انتقاء الجيش .

وفي ذكر عدد العشرين ، وعدد (المائة) في جانب جيش المسلمين ، وفي جانب جيش المشركين عدد (المائتين) وعدد (الألف) إيماء إلى قلة جيش المسلمين في ذاته ، مع الإلماح إلى أن ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة ، عددهم في أنفسهم ، فإن العادة أن زيادة عدد الجيش تقوى نفوس أهله ، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد عدوهم غير مختلفة ، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهن استشعار قلة عدد جيشهم في ذاته .

وفي التعريف بالموصولية في (الذين كفروا) للإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي : وهو سلب الفقاهة عنهم .

وفي جعل الكفر سبباً في انتفاء الفقاهة عنهم ؛ لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس، فصاحبه ينشأ على إهمال النظر ، وعلى تعطيل حركات فكره . فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب الظاهرية، فهم لا يؤمنون بما بعد الموت من نعيم وعذاب ؛ لذا فهم يخافون الموت فلا يقاتلون إلا في الحالة التي يكون نصرهم فيها أرجح .

أما المؤمنون فهم يعولون على نصر الله ولا يهابون الموت في سبيله ؛ لإيمانهم بالحياة الأبدية والنعيم المقيم فيها . (١)

---

(١) ينظر : النهاية ٤/٢٩٠ ، ٢٩١ ، والدر المصون : ٤٣٥/٣ ، والتحرير والتنوير : ٦٦/١٠ ، ٦٧

أما عن الموضع الثالث الوارد في هذه السورة ، وهو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأنفال / ٧٠ .

فقد جاء عقب ترهيبهم بمس العذاب عند أخذ الفداء لولا سبق الكتاب ، ولذا جاء عقبه الترغيب بأنه كلما صدهم عن جانب صارف ذنب ، فردهم إليه عاطف تقوى ، أسبل عليهم ذيل المغفرة والرحمة . ولما علم من هذا إباحة ما يؤخذ من الأسرى من الفداء ، وكان ما يؤخذ منهم تعظم مشقته عليهم ، أقبل عليهم مستعطفاً لهم ترغيباً في الإسلام ، فأقبل على نبيه ﷺ بالأمر بمخاطبتهم تنبيهاً على أنهم ليسوا بأهل لخطابه سبحانه بما أبعدوا أنفسهم عنه من اختيارهم الكون في زمرة الأعداء على الكون في زمرة الأولياء ، فقال معبراً بالوصف الناظر إلى تلقي العلم ترغيباً في التلقي منه ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ أي : الذي أنبأه بكل معنى جليل يظهر دينه ، ويزكي أمته مع رفع مقداره وإتمام أنواره. (١)

وأحسب أن في التعبير بوصف النبوة (النبي) هنا تناغماً واضحاً مع قول الحق سبحانه الوارد في الآية : ﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾

فهو إخبار عن علم أمر غيبي يتعلق بضمائر القلوب وسرائرها التي لا علم للعبد بها إلا من طريق الوحي الإلهي الذي يختص بعلمه من يشاءه الله تعالى لذلك ، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ (٢) .

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٣/٢٤٥ ، ٢٤٦ ، وحاشية الشهاب : ٤/٢٩٣ ، ٢٩٤ ، والدر المصون : ٣/٤٣٧ ، والتحرير والتنوير : ١٠/٨٠ .

(٢) الجن / ٢٦ ، ٢٧ .

ومنزلة رسول الله ﷺ من ربه تفوق من اصطفاهم للنبوة والرسالة ، فجيء بهذا الوصف (النبي) الذي من أخص معانيه إن قرئ بالهمز (النبيء) - على ما نبه إليه أهل العلم - الارتفاع والعلو ، وذلك لمن أعلى عن رتبة الرسالة إلى رتبة العلم ، فكان مطلعاً على علم ما ورد عليه من الغيب على حقيقته وكماله .(١)

ومعنى (من في أيديكم) أي : من في ملكتكم ووثاقكم .

فالأيدي مستعارة للملك ، وجمعها باعتبار عدد المالكين .

وكان الأسرى مشركين ، فإنهم ما فادوا أنفسهم إلا لقصد الرجوع إلى أهل الشرك .

والمراد بالخير محبة الإيمان والعزم عليه ، أي : فإذا آمنتم بعد هذا الفداء يؤتكم الله خيراً مما أخذ منكم .

وليس إيتاء الخير على محبة الإيمان والميل إليه ، كما أخبر العباس عن نفسه ، بل المراد به ما يترتب على تلك المحبة من الإسلام بقرينة قوله : (ويغفر لكم) .

وفي هذا العطف ما يدل على أن المراد بالخير هو خير الآخرة المترتب على الإيمان لأن المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن .

وفي التذييل بقوله (والله غفور رحيم) إيماء إلى عظم مغفرته التي يغفرها لهم ؛ لأنها مغفرة شديد الغفران رحيم بعباده .

فمثال المبالغة وهو غفور المقتضي قوة المغفرة وكثرتها مستعمل فيها باعتبار كثرة المخاطبين وعظيم المغفرة لكل واحد منهم .(٢)

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٦٧/٦ .

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه : ٢٩٣/٤ ، ٢٩٤ ، والدر المصون : ٤٣٨ ، والتحرير والتنوير : ٨٠/١٠ ، ٨١ .

والله تعالى أعلى بمراده

- وأما عن الموضعين (الرابع) و (الخامس) الواردين في سورتي (التوبة) و (التحريم) ، فقد جاء بعد النداء بالوصف الأمر بجهاد الكفار والمنافقين

- يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ التوبة / ٧٣ ، التحريم / ٩ .

وإنما وجه هذا الأمر إلى الرسول ﷺ ؛ لأنه جبل على الرحمة ، فأمر بأن يتخلى عن جبلته في حق الكفار والمنافقين ، وأن لا يقضي عنهم كما كان شأنه من قبل .(١)

وقرن المنافقون بالكفار للتنبيه على أن سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقق في المنافقين ، فجهادهم كجهاد الكفار ؛ ولأن الله تعالى لما قرنهم في الوعيد بعذاب الآخرة إذ قال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (٢)

وأما قوله هنالك بأن لهم عذاباً آخر ، لا جرم جمعهم عند شرع هذا العذاب الآخر لهم .

فالجهاد المأمور للفريقين مختلف : إذ هو مع الكفار يجب أن يكون بالسيف ، ومع المنافقين بإظهار الحجة تارة ، وبترك الرفق ثانياً ، وبالانتهار ثالثاً

وفائدة القرن بين الكفار والمنافقين في الجهاد : إلقاء الرعب في قلوبهم ، فإن كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار المحاربين فيكون ذلك حاضداً شوكتهم .(٣)

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٦٧/١٠ .

(٢) التوبة / ٦٨ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٩٨/٨ ، ٩٩ ، وحاشية الشهاب : ٣٤٥/٤ ، والبحر المحيط : ٢٩٣/٨ ، ٢٩٤ ، والتحرير والتنوير : ٢٦٥/١٠ ، ٢٦٦ ، ٣٧٢/٢٨ .

ولا شك أن جهاد الكفار والمنافقين له من الأهمية والاعتناء به ما له ، حيث جمع الله بين أعداء الإسلام فى الظاهر وهم الكفار ، وأعدائه فى الباطن وهم المنافقون ، ولذلك تكررت هذه الآية كما هى سورة " التحريم " مما يدل على أهمية الأمر فيها .. يقول صاحب الظلال :

" وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين فى الأمر بجهادهم والغلظة عليهم ، لأن كلاً من الفريقين يؤدى دوراً مماثلاً فى تهديد المعسكر الإسلامى وتخطيه وتثبيته ، فجهادهم هو الجهاد الواقى من النار ، وجزاؤهم هو الغلظة عليهم من رسول الله ﷺ والمؤمنين فى الدنيا ، ومأواهم جهنم وبئس المصير فى الآخرة " .[1]

وعلى هذا فإن التعبير بوصف النبوة فى الموضعين هو الملائم للسياق ، لدلالته على الرفعة بالإعلام بالأخبار الإلهية المبنى على الإحكام والعظمة المثمرة للغلبة .

أما وصف الرسالة فلا يمكن إقامته فيهما ، إذ يغلب فيه الرحمة فيكثر إقباله على اللين والمسايسة نظراً إلى وصف الربوبية .[2] والله تعالى أعلى وأعلم .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٦/٣٦٢٠ ، ٣٦٢١ ، وينظر : الشهاب : ٨/٢١٣ ، والبحر المحيط : ٨/٢١٣ ، ٢٩٤ ، والفخر : ١٥/٥٩٧ ، وروح المعانى : ١٤/٣٤٢ ، والدر المصون : ٦/٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(٢) ينظر : نظم الدرر : ٨/٥٩ .

المبحث الثالث

أسرار البلاغية فى نداء النبى ﷺ بوصفى " المزمل " و " المدثر "

جاء نداء رسول الله ﷺ بالصفة المشتقة من الهيئة التى كان عليها فى موضعين من الذكر الحكيم وهما :

١ - نداؤه ﷺ بوصف " المزمل " فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

٢ - نداؤه ﷺ بوصف " المدثر " فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

والنداء بهذين الوصفين له ﷺ فيه تأنيس وملاطفة كما ذكر ذلك أهل العلم ، يقول الشهاب - رحمه الله - :

" والحق ما قاله السهيلى[1] - رحمه الله - من أنه تأنيس له وملاطفة ، على عادة العرب فى اشتقاق اسم المخاطب من صفته التى هو عليها كقوله ﷺ لسيدنا على - كرم الله وجهه - : " قم يا أبا تراب "[2] إقصداً لرفع الحجاب ، وطى بساط العتاب، وتنشيطاً له ليتلقى ما يرد عليه بلا كسل "[3]

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمى السهيلى : حافظ ، عالم باللغة والسير ، ضرير ، ولد فى مالقة ، وعمى وعمره ١٧ سنة ، ونبغ فاتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه إليه وأكرمه ، فأقام بمصنف كتبه إلى أن توفى فيها ، نسبته إلى سهيل (من قرى مالقة) وهو صاحب الأبيات التى مطلعها : يا من يرى ما فى الضمير ويسمع ∴ أنت المعد لكل ما يتوقع .
من كتبه (الروض الأنف) ط فى شرح السيرة النبوية لابن هشام وتفسير سورة يوسف فى غزالة الرياط " د ١٤٢٧ " . والتعريف والإعلام فى ما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام " ح " والإيضاح والتبيين لما أبهم فى تفسير القرآن المبين " ونتائج الفكر . ينظر : الأعلام للزركلى : ٣/٣١٣ ، ووفيات الأعيان ١/٢٨٠ ، تذكرة الحفاظ للذهبى ٤/١٣٧ .

(٢) صحيح البخارى ١/١٦٩ ، رقم ٤٣٠ ، بلفظ " قم أبا تراب " باب نوم الرجال فى المسجد ، صحيح مسلم ٤/١٨٧٤ ، رقم ٢٤٠٩ ، بلفظ " قم أبا التراب " باب من فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، كتاب فضائل الصحابة رضى الله عنهم .

(٣) حاشية الشهاب : ٨/٢٦٢ ، وينظر : الدر المصون للسمين الحلبى : ٦/٤٠١ ، ٤٠٢ ، وحاشية الشيخ زاده : ٨/٣٧٣ ، ٣٧٤ .

وقوله ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ يوم الخندق : " قم يا نومان "[1]

وقوله لعبد الرحمن بن صخر الدوسي وقد رآه حاملاً هرة صغيرة في كمه : " يا أبا هريرة "...[2] [3]

ففي هذا دليل على أن النداء بالهيئة التي يكون عليها الإنسان للتأنيس والملاطفة ، وعليه جاء نداؤه ﷺ بوصفي " المزمل " و " المدثر " ولنرجع إلى المقام الوارد فيه كل وصف من الوصفين لنقف على سر اختصاص كل سياق بالوصف الوارد فيه ، وهل هناك فرق بين كلا الوصفين ؟

قال أهل العلم :" المزمل " : اسم فاعل من " تزمل " : إذا تلفف بثوبه كالمغرور ، أو مريد النوم ، وهو مثل " المدثر " في مآل المعنى وإن كان بينهما اختلاف في أصل الاشتقاق :

- فالمزمل مشتق من معنى التلفف .

- والمدثر مشتق من معنى اتخاذ الدثار للتدفؤ .

وأصل " المزمل " مشتق من " الزمل " بفتح فسكون ، وهو الإخفاء ولا يعرف لـ " تزمل " فعل مجرد في معناه ، فهو من التفعل الذي تنوسي منه معنى التكلف للفعل ، وأريد في إطلاقه معنى شدة التلبس وكثر مثل هذه في الاشتمال على اللباس ، فمنه " التزمل " ومنه " التعمم " ، و " التأزر " و " التقمص " .

وربما صاغوا له صيغة الافتعال مثل : " ارتدى " و " التزر "[4]

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٤١٤ ، رقم ١٧٨٨ ، باب غزوة الأحزاب ، كتاب الجهاد والسير .

(٢) صحيح البخاري ١/٤٩ ، رقم ٩٩ ، باب الحرص على الحديث ، كتاب : العلم .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٩/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٤) ينظر : الصحاح للجوهري : ص ١٥٥ ، ط دار الحديث / أولى ٢٠٠٠م .

وأصل " المزمل " : " المتزمل " أدغمت التاء في الزاي بعد قلبها زاياً لتقاربهما .

وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية قال الزهري وجمهور المفسرين : " إنه التزمل الذي جرى في قوله النبي ﷺ " زملوني زملوني " . حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه "اقرأ باسم ربك" الآيات . كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب (بدء الوحي) من صحيح البخاري[1] ، وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذ ، وعليه فهو حقيقة .

وقيل : هو ما في حديث جابر بن عبد الله قال [2] : " لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه " أي صفوه وصفاً تتفق عليه الناس) .

فقالوا : كاهن ، وقالوا : مجنون ، وقالوا : ساحر .

فصدر المشركون على وصفه بـ " ساحر " ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وتزمل في ثيابه وتدثر ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

وسيأتي في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ أن سبب نزولها رؤيته الملك جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، فرجع إلى السيدة خديجة - رضي الله عنها - يرجف فؤاده فقال : " دثروني " .

فيتعين على هذا أن سبب ندائه بـ " يا أيها المزمل " كان عند قوله " زملوني " فذلك عندما اغتم من وصف المشركين إياه بالجنون ، وأن ذلك غير سبب ندائه بـ "يا أيها المدثر " في سورة المدثر

---

(١) ينظر : صحيح البخاري ١/٥ ، رقم ٤ .

(٢) ينظر : مجمع الزوائد للهيثمي ٧/١٣٠ ، سورة المزمل ، وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط .

وقيل : هو تزمل للاستعداد للصلاة ، فنودى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا مروى عن قتادة ، وقريب منه عن الضحاك ، وهى أقوال متقاربة ، ومحملها أن التزمل حقيقة .

وقال عكرمة : معناه : " زملت هذا الأمرفقم به " ، يريد أمر النبوة فيكون قوله : " الليل إلا قليلاً " مع قوله " إن لك فى النهار سبحاً طويلاً ، تحريضاً على استفراغ جهده فى القيام بأمر التبليغ فى جميع الأزمان من ليل ونهار إلا قليلاً من الليل ، وهو ما يضطر إليه من الهجوع فيه ، ، ومحمل التزمل عنده على المجاز .(١)

فإذا كانت سورة " المزمل " قد أنزلت قبل سورة " المدثر " كان ذلك دالاً على أن الله تعالى بعد أن ابتدأ رسوله بالوحى بصدر سورة " اقرأ باسم ربك " ، ثم أنزل عليه سورة " القلم " لدحض مقالة المشركين فيه التى دبرها الوليد بن المغيرة أن يقولوا " " إنه مجنون " . أنزل عليه ﷺ التلطف به على تزمله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين ، فأمره الله تعالى بأن يدفع ذلك عنه بقيام الليل ثم فتر الوحى فلما رأى الملك الذى أرسل إليه بحراء تدثر من شدة وقع تلك الرؤية ، فأنزل عليه : " يا أيها المدثر " .(٢)

وقد أسهبت فى ذكر ما مضى من أقوال ؛ لما فى الوقوف عليها من تحديد دقيق لمدى ملاءمة الوصف المذكور للحالة التى كان عليها ﷺ وقت ندائه

---

(١) ينظر: الكشاف : ٦٢٤/٤ وما بعدها ، ونظم الدرر : ٢٠٢/٨ ، ٢٠٣ ، والبيضاوى وحاشية الشهاب عليه : ٢٦٢/٨ ، ٢٦٣ ، والتفسير الكبير : ٧٩٣/١٥ وما بعدها ، وغرائب القرآن : ٧٥/٢٩ ، ٧٦ ، وحاشية الشيخ زاده : ٣٧٤/٨ ، وروح المعانى : ١١٣/١٥ ، والتحرير والتنوير : ٢٥٦/٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٥٧/٢٩ .

وإنما ذهب من رد قول من قال بأن " المزمل " و " المدثر " بعدان من أسماء النبى ﷺ وليسا وصفين له كما نبه على هذا السهيلى - رحمه الله - ونقله عنه أهل العلم .(١)

ولكن ما السر فى إيثار كل سورة من السورتين بالمطلع الوارد فيها ؟

أما عن إيثار " المزمل " بهذا المطلع ، فقد ذكر الزمخشرى رأياً غريباً فى نداله ﷺ بهذا الوصف (المزمل) كان مثار انتقاد من العلماء ..

يقول الزمخشرى : كان رسول الله ﷺ متزملاً فى قطيفة ، فنبه ونودى بما يهجن إليه الحالة التى كان عليها من التزمل فى قطيفة ، واستعداده للاستقبال من النوم ، كما يفعل من لا يهمه ولا يعنيه شأن ، ألا ترى إلى قول ذى الرمة :

وكائن تخطت ناقتى من مفازة ∴ ومن نائم عن ليلها متزمل (٢)

يريد الكسلان المتقاعس الذى لا ينهض فى معاظم الأمور وكفايات الخطوب ، ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب .. فذمه بالاشتمال بكسائه ، وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس ، وأمر بأن يختار على الهجود التهجد ، وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة فى الله " .(٣)

وقد رد ابن المنير هذا القول بقوله : " أما قوله الأول : إن نداءه بذلك تهجين للحالة التى ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة ، فخطأ وسوء أدب ، ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له فى الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله ، فقد قال العلماء : إنه لم يخاطب باسمه نداء ، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل ؛ إكراماً له وتشريفاً ، فأين نداؤه بصيغة مهجنة من

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٥٧/٢٩ .

(٢) ديوان ذى الرمة : ١٧٥/٢ تح د/ عبد القدوس أبو صالح ، ط مؤسسة الإيمان - بيروت ١٩٨٢م

(٣) الكشاف : ٦٢٤/٤ ، ٦٢٢ .

نداه باسمه ، واستشهاده على ذلك بآيات قيلت ذماً فى حفاة من الرعاة ، فان أبرأ إلى الله من ذلك وأوبأ به ﷺ ". (١)

وقد ارتضى أهل العلم ذلك الرد من ابن المنير . (٢)

وإن اعتذر بعضهم عن قول الزمخشرى المتقدم وذكر أنه من لطيف العتاب الممزوج بالرأفة ، وقد خوطب بما هو أشد منه فى قوله (عبس وتولى) .

وقد رد الشهاب هذا الاعتذار ورأى أنه ليس بشىء ؛ لأن الله تعالى له أن يخاطب حبه بما شاء ، ونحن لا نجرى على ما عامله به ، بل يلزمنا الأدب والتعظيم لجنابه الكريم ، ولو خاطب بعض الرعايا الوزير بما خاطبه به السلطان طرده الحجاب ، وربما كان العقاب هو الجواب " . (٣) كما ذكر الزمخشرى قولاً آخر بقوله :

" وقيل : كان متزملاً فى مرط لعائشة يصلى ، فهو على هذا ليس بمنهيين ، بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التى كان عليها ، وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه " . (٤)

وقد رد هذا أيضاً بأن السورة مكية ، والنبى ﷺ بنى بعائشة فى المدينة(٥)

ولعل القول بأن اختيار الخطاب هنا للتلطف به والتحبب إليه وتهيئته هو الملائم للفترة بدء الوحى التى كان فيها رسول الله ﷺ فى خوف واضطراب ؛ لأنه لم يعهد هذا الأمر من قبل .

---

(١) الانصاف : ٦٢١/٤ .

(٢) ينظر : حاشية الشهاب : ٢٦٢/٨ ، وروح المعانى : ٧٥/٢٩ ، وحاشية الجمل : ٤٢٦/٤ ، وتفسير المنار : ٤٠١/٦ ، ٤٠٢ ، وحاشية الشيخ زاده : ٣٧٤/٨ .

(٣) ينظر : حاشية الشهاب : ٢٦٢/٨ .

(٤) الكشاف : ٦٢٢/٤ .

(٥) ينظر : الانصاف : ٦٣٤/٤ .

ويؤيد هذا ما رواه كتب السيرة عن حاله ﷺ عند نزول الوحى عليه أول مرة . (١)

- وأما عن إيثار " المدثر " بهذا المطلع فى السورة الثانية ، فإنه ﷺ - كما سبق القول - قد تودى بوصفه فى حالة خاصة تلبس بها حين نزول السورة ، وهى أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فرق من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال : " دثرونى دثرونى " أو قال " زملونى " أو قال " زملونى فدثرونى " على اختلاف الروايات ، والجمع بينها ظاهر فدثرته ، فأنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . (٢)

و " المدثر " اسم فاعل من " تدثر " : إذا لبس الدثار ، فأصله " المتدثر " أدغمت التاء فى الدال لتقاربهما فى النطق ، و " الدثار " بكسر الدال : الثوب الذى يلبس فوق الثوب الذى يلبس مباشرة للجسد الذى يسمى شعاراً . وتدثر بالدثار : تلفف به فهو تدثر ومتدثر . (٣)

والتعبير بالأداة الصالحة للقرب والبعد يراد به غاية القرب بما عليه السياق ، وإن كان التعبير بالأداة فيه نوع ستر لذلك مناسبة للتدثر واختير التعبير بها ؛ لأنه لا يقال إلا لما جل وعظم من الأمور .

---

(١) ينظر : سيرة ابن هشام : ٢٣٧/١ ، ٢٣٨ ، تح / مصطفى السقا وآخرين ، ط مصطفى البابى الحلبى / الطبعة ١٣٧٥هـ /١٩٥٥م ، والتصويرات القرآنية التى جاءت على وتيرة واحدة : ص ١٦٩ (مرجع سابق) .

(٢) ينظر : الكشاف : ٦٤٤/٤ ، ٦٤٥ ، والقاموس : ٨٢٢/١٥ ، والتحرير والتنوير : ٢٩٤/٢٩ .

(٣) الصباح المنير : ص ١٦٦ ، وينظر : الكشاف : ٦٤٤/٤ ، والبيضاوى وحاشية الشهاب عليه : ٢٧٠/٨ ، ٢٧١ ، وغرائب القرآن : ٨٩/٢٩ ، والتحرير والتنوير : ٢٩٤/٢٩

وكان الدثار لم يعم بدنه الشريف ﷺ بما دل عليه التعبير بالإدغام دون الإظهار الدال على المبالغة ؛ لأن المراد إنما كان ستر العين ليجتمع القلب ، فيكفي في ذلك ستر الرأس وما قاربه من البدن. والإدغام شديد المناسبة للدثار[1] .

وبالنظر في السورة الكريمة المشتملة على هذا الوصف نجد أنها قامت على الإنذار ومواجهة أهل العناد ، ومكرهم وتفكيرهم وتقديرهم وتليسهم ولا شك أن مواجهة هذا تحتاج إلى جد أكثر واجتهاد أكثر .

ونلاحظ أنه ﷺ بعثه الله تعالى بشيراً ونذيراً ، ولكن الكلام هنا في الإنذار وحده ، يعني مواجهة شراسة أهل الباطل .

وإذا طرح " المدثر " ما هو متدثر به لم يبق عليه إلا الشعار ، وهذا أدعى لخلوصه وتجرده ، واشراطه نفسه لما هو بصدده من أمر الجد .

وفي هذا دلالة على أن إلقاء الدثار وبقاء الشعار لا غير يعني مزيداً من التجرد للأمر والانقطاع له [2] ، وهو ما يتناغى معه القيام بالإنذار كما ورد في

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٢٢٠/٨ .

وعلى هذا فالوصف بـ " المدثر " حقيقة ، وقيل : هو مجاز على معنى : المتدثر بالنبوة ، كما يقال : للمتحلي بالمجد وتأزر به على نحو ما قيل في قوله تعالى : " يا أيها المزمل " أي : يا أيها اللابس خلعة النبوة ومتأزرها .

ينظر : الفخر : ٨٢٣/١٥ ، وروح المعاني : ١٢٩/١٥ ، وغرائب القرآن : ٨٦/٢٩ ، والدر المصون : ٤١١/٦ ، ٤١٢ ، وحاشية الشيخ زاده : ٣٨٨/٨ ، ٣٨٩ .

(٢) ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخاري - دراسة في صحة الكلام الأول - أ . د / عبد أبو موسى - ص ٧٩ - مكتبة وهبة / ط أولى ٢٠٠٦م .

السورة الكريمة ، والأمر بالقيام [1] هنا ، وفي السورة التي قبلها " المزمل " ملائم للإيناس والتلطف ، حيث أراد به التهيج والإثارة لما سوف يرد بعده من أمور عظيمة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) جاء الأمر بالقيام عقيب نداء " المزمل " ونداء " المدثر " - صلى الله عليه وسلم - والأمر بالقيام في " المدثر " لا يعني قياماً من قعود ، وإنما يعني الاهتمام بالذي يأتي بعده والنهوض بأعبائه والاجتهاد لذلك والجد فيه - كأنه قيل : أيها المدثر اطرح ما تدثرت به وانهض .

والأمر في " المزمل " : " قم الليل إلا قليلاً " يعني : أمر بمباشرة عبادة ، وتأمل كيف وسع الله عليه ، وجعل له جملة اختيارات : " قم الليل إلا قليلاً " نصفه أو انقص منه قليلاً " أو زد عليه " وهذا شيء و " قم فأنذر " شيء آخر ، والمزمل وإن كان معناه اطراح ما تزملت به من أجل قيام الليل ، فإن طرح المتزمل يعني " بقاء الثياب شعاره ودثاره والقائم للصلاة غير القائم للإنذار . والله أعلم .

ينظر : المرجع السابق : ٧٥ ، ٧٩ .

والأمر بالقيام في الموضعين ملائم للإيناس والتلطف ، حيث أراد به التهيج والإثارة لما سوف يرد بعده من أمور عظيمة .

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله بعدد ما مضى وما هو آت .

ثم أما بعد

فإن دراسة الشواهد المتعلقة بنداء النبى ﷺ بأوصافه فى الذكر الحكيم قد أثبت ما يلى :

أولاً : أن النداء بالوصف جاء بحرف النداء " يا " فى جميع المواضع دون غيرها من حروف النداء ؛ لأنها أندى وأنفذ ، ولا ينادى اسم الله إلا بها ، وكذلك لا يقع فى نداء " أيها " و " أيتها " سواها ، ولا يقدر عند الحذف غيرها .

وقد ذكر الزمخشرى أن " يا " تفيد التوكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يطرقه معنى به جداً .

وهذا يتلاقى مع الاهتمام الناتج من استعمال النبى فى النداء ، كما ذكرت ذلك فيما سبق .

وإذا كانت " يا " فى أصل وضعها ينادى بها البعيد ، فاستعمالها فى نداء الله - تعالى - لنبيه ﷺ يدل على أنه ﷺ ينادى لأمر مهم وخطير فليجمع قلبه وعقله لتلقيه ، ولولا هذه الإشارة لجىء بـ " أى " أو " الهمزة " ؛ لأن الله قريب إلى كل منادى ، وقد ذكر ابن هشام أن " يا " قد ينادى بها القريب توكيداً .

ثانياً : أن نداء النبى ﷺ بالوصف جاء بثلاثة أوصاف وهى : "الرسول " فى الأمر بالتبليغ وعدم الحزن الناتج عن تكذيب الكفار له بعد تبليغه ، و " النبى" فى الإخبار بالأمور المهمة ، و "المزمل" و " المدثر " تصويراً للهيئة التى كان عليها للدلالة على التأنيس والملاطفة ، وهذا يتلاقى مع

كون الخطاب فى مبدأ الدعوة ومهدها ، وهو ما يحتاج إلى ذلك تهيئة للأمر .

ثالثاً : أن النداء بـ " الرسول " أو " النبى " جاء جميعه فى السور المدنية ، بينما جاء النداء بالوصف " المزمل " و " المدثر " المأخوذ من الهيئة التى كان عليها ﷺ فى السور المكية المبكرة فى النزول

ونداؤه ﷺ بـ " الرسول " و " النبى " فى السور المدنية يدل على أنه قد ترسخ فى هذه الصفة ، بحيث تصبح هذه الصفة من مقومات شخصه بحيث لا تنفك عنه .

كما أن صفتى " النبوة " و " الرسالة " قد ازداد تأثيرهما فى الناس بعد هجرة النبى ﷺ ، ولذلك فلا عجب أن ينادى بهما فى المدينة . أما نداؤه فى بدايات الوحى بالهيئة التى كان عليها ، فإن فيه من الملاطفة والإيناس ما لا يوجد فى النداء بالنبى أو الرسول . والنبى ﷺ كان فى حاجة إلى الإيناس خاصة فى بدء نزول الوحى .

رابعاً : أن النداء بالوصف المشتق من الهيئة التى كان عليها ﷺ يعقبه الأمر بالقيام " قم " وليس المقصود به حقيقة القيام ، وإنما هو أمر بالقيام بالتكاليف المأمور بها من الله تعالى ، سواء من حيث القيام فى الليل للصلاة والذكر ، أو الإنذار والتخويف من عقاب الله تعالى ، ويدل على ذلك قولهم : " قد قام بالأمر " بمعنى : أداه كما ينبغى أن يؤدى ، فهو جار على طريقة العرب فى خطابهم .

والأمر بالقيام فى الموضعين ملائم للإيناس والتلطف ، حيث أراد به التهيج والإثارة لما سوف يرد بعده من أمور عظيمة .

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان - السيوطي ، دار مصر للطباعة .

٢- أحسن الكلام في الفاتحة والأحكام - الشيخ عطية صقر - دار الفد العربي ، الطبعة الأولى - ١٩٩٤م .

٣- الأساليب الإنشائية وأسرارها في القرآن الكريم - د / صباح عزاز مطبعة الأمانة / أولى ١٩٨٩م .

٤- أصول النحو - أبو منصور عبد القاهر بن طاهر الجلادي - دار الكتب العلمية - بيروت .

٥- الإيضاح - الخطيب القزويني ، دار الجيل - بيروت - لبنان .

٦- البحر المحيط - أبو حيان الأندلسي ، دار الفكر ط / ثانية ١٩٨٣م .

٧- البرهان في علوم القرآن - الزركشي - دار الكتب العلمية / أولى ١٩٨٨م

٨- بغية الإيضاح - الشيخ عبد المتعال الصعيدي - محمد علي صبيح / ثامنة

٩- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري - د / محمد أبو موسى ، دار الصحابي الطبعة الثانية ١٩٩٥م

١٠- بلوغ الأمل في تفسير سورة الأنفال - د/ محمد كامل حسنين - مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٩٩٥م

١١- البيان في روائع القرآن - د/ محمد بكر إسماعيل - الطبعة الأولى (بالمولد) .

١٢- تاج اللغة وصحاح العربية - الجوهري - تح / أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - أولى ١٩٨٤م .

١٣- التحرير والتنوير - الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر .

١٤- التسهيل - ابن مالك طبعة وزارة الثقافة .

١٥- التعبيرات القرآنية التي جاءت على وتيرة واحدة (دراسة بلاغية) محمد أبو أحمد - دكتوراه - مخطوط في كلية اللغة العربية القاهرة - ٢٠٠٠م

١٦- التفسير المنير - دار صادر - بيروت .

١٧- حاشية الصبان (شرح) دار السرور .

١٨- حاشية الشهاب على البيضاوي - دار صادر - بيروت .

١٩- حاشية الشيخ زاده على البيضاوي - دار الكتب العلمية بيروت أولى ١٩٩٩م

٢٠- حاشية الصبان على الأشموني - دار إحياء الكتب العربية .

٢١- حاشية فتح الجليل على شرح ابن عقيل - الإمام السجاعي (بالمولد) .

٢٢- حاشية الصباوي على شرح الجوهر المكنون للأخضري - مطبعة حجازي القاهرة .

٢٣- دراسة الأساليب الإنشائية في الترغيب والترهيب - ناصر راضي الزهراني (ماجستير) مخطوط في كلية اللغة العربية بأسيوط ٢٠٠١م .

٢٤- دراسات وتطبيقات في علم المعاني - أ . د / يحيى محمد يحيى ، ط أولى ١٩٨٩ .

٢٥- الدر المصون - السمين الحلبي تح علي محمد معوض - دار الكتب العلمية / أولى ١٩٩٤م .

٢٦- دلالات التراكيب أ . د / محمد أبو موسى - دار الصحابي / ثالثة ١٩٨٧م .

٢٧- ديوان ذي الرمة تح د / عبد القدوس أبو صالح - مؤسسة الإيمان - بيروت ١٩٨٢م

٢٨- رسول الله في القرآن - حسن كامل الصعاوي ، دار المعارف بمصر .

٢٩- روح المعاني - الآلوسي - دار الكتب العلمية بيروت / أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

٣٠- سيرة ابن هشام - تح / مصطفى السقا وآخرين - الحلبي / ثانية ٢٠٠١م .

٣١- شرح الحاديث البخاري أ . د / محمد أبو موسى - مكتبة وهبة / أولى ٢٠٠١م

٣٢- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء التراث العربي (بالمولد)

٣٣- شرح البيجوري على جوهرة التوحيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م .

٣٤- شرح الجوهر المكنون - الإمام الأخضري - مطبعة حجازي القاهرة .

٣٥- شرح المفصل - ابن يعيش - عالم الكتاب - بيروت (بالمولد) .

٣٦- الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ القاضي عياض - مطبعة مصطفى الحلبي .

٣٧- صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي - دار الشعب ودار ابن كثير واليمامة - بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، الطبعة الثالثة .

٣٨- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي - بيروت (بالمولد) - تحقيق أ / محمد فؤاد عبد الباقي .

٣٩- الطبقة الإسلامية - عبد الرحمن حسن الميداني - دار القلم بدمشق .

٤٠- الطبقة الإسلامية - د/ عطية محمد وآخرين - دار الفكر عمان - الأردن .

٤٧- غرائب القرآن ورغائب الفرقان - النيسابوري - تح د/ إبراهيم عطوة - مطبعة مصطفى الحلبي - أولى ١٩٦٢م.
٤٨- فن البلاغة - أ. د. عبد القادر حسين - دار الكتب / ثانية ١٩٨٤م
٤٩- الكتاب - سيبويه - تح / عبد السلام هارون - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧م.
٥٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - جار الله الزمخشري - دار الريان - ثالثة ١٩٨٧م.
٥١- لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف ١٣٩٣هـ - وطبعة المطبعة الأميرية وبولاق.
٥٢- لغز الرحمن - ابن عطية - تح / عبد السلام عبد الشافي - دار الكتب العلمية أولى ١٩٩٣م.
٥٣- المبهج الزاهر - علي بن أبي بكر الطبسي ، دار الريان للتراث ، ودار الكتاب العربي ، القاهرة ١٤٠٧هـ.
٥٤- مجمع البحرين في رواية ـــ إسحاق بن إبراهيم بن محلد بن راهويه الحنظلي ، تح د/ عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي ، مكتبة الإيمان - المدينة المنورة ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
٥٥- مشارق أنوار القلوب - الإمام عبد الله حميد السالمي - تح / عبد الرحمن عميرة - مكتبة الاستقامة - سلطنة عمان.
٥٦- مصباح المنير - الفيومي ، تح د/ عبد العظيم الشناوي - دار المعارف وطبعة دار الهدى / أولى ٢٠٠٠م.
٥٧- المطول - السعد التفتازاني - دار الكتب العلمية بيروت أولى ٢٠٠١م
٥٨- معجم التراكيب - د/ أحمد مطلوب - دار الطباعة المحمدية ١٩٨٣
٥٩- المعجم الوجيز، لمجمع اللغة العربية - الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٩٩٣م
٦٠- مفاتيح الغيب - الفخر الرازي ، دار الفكر - بيروت.
٦١- مفتاح العلوم - السكاكي - تح / نعيم زرزور - دار الكتب العلمية / الثانية ١٩٨٧م.
٦٢- المفردات - الراغب الأصفهاني - كتاب الجمهورية.
٦٣- المقتضب - المبرد - تح / عضيمة - دار إحياء التراث الإسلامي.

٦٤- من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) د/ عبد الفتاح لاشين - مكتبة مكاظ للنشر - أولى ١٩٨٣م.
٦٥- من أسرار التعبير القرآني في سورة الأحزاب ، أ. د/ محمد أبو موسى - مكتبة وهبة / ثانية ١٩٩٦م.
٦٦- مواهب الفتاح - ابن يعقوب المغربي (شروح) دار السرور.
٦٧- الموطأ - ابن أنيسة - دار الفتح.
٦٨- النبوة في العقيدة الإسلامية - د/ عبد المنعم الفحلي / الأمانة ١٩٩٩م
٦٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - دار الكتب العلمية - بيروت أولى ١٩٩٥م.
٧٠- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع - السيوطي تح / أحمد شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت / أولى ١٩٩٨م.